الفصل الثانى عشر

وداعا ايطاليـــا

١٧٦٠ — ١٧٨٩

(١) جولة وداع

لو سمحنا لأنفسنا بنظرة واحدة أخرى إلى إيطاليا لوجدناها حتى فى هذه القيلولة الظاهرية دافئة بالحياة . فسنرى تورين تحتضن الفيرى ، ولوكا تنشر موسوعة ديدرو ، وفلورنسة تزدهر ثانية تحت حكم الدوق الكبير ليوبولد ، وميلان تصلح القانون بفضل بيكاريا وبافيا وبولونيا تهتزان طربا لتجارب فولتا وجلفانى ، والبندقية تعانى من سلوك كازانوفا ، ونابلى تتحدى البابوية ، وروما متورطة فى مأساة اليسوعيين ، وعشرات من مرابى الموسيقى تصدر الأوبرا ومهرة العازفين ليهدئوا صدر الأقطار المتوحشة عبر الالب . وسنلتقى فى إيطاليا بمائة ألف أجنبى قدموا إليها ليدرسوا كنوزها وليصطلوا بشمسها . ففى هذا العهد وفد عليها جوته بعد أن أرهقه نبلاء قيمار ليجدد شبابه ويروض ربة شعره .

كان انطباع جوته الأول وهو منحدر من الالب إلى فينتسيا ترد نتينا (سبتمبر ١٧٨٦) تأثره بالهواء المعتدل والجو المشرق الذى « يضفى غاية البهجة على مجرد الوجود بل حتى على الفقر »[1] ثم هذه الحياة الطليقة : «فالأهالى دائماً خارج بيوتهم وهم نحاو بالهم لا يفكرون فى شىء . إلا فى أن يحيوا » . وظن أن التربة المثمرة لا بد أن تجود على هولاء القوم البسطاء بحاجاتهم المتواضعة دون ابطاء ، ولكن الفقر وعدم وجود الوسائل الصحية فى المدن الصغيرة افزعاة :

« حين سألت النادل عن مكان (لقضاء الحاجة) أشار لى على الفناء قائلا « ممكن ، تحت ، فى الحوش ». فسألته « آين ؟ فقال فى لهجة ودية « فى أى

مكان ، كما تشاء » . . . فكل الافنية الأمامية والأعمدة تلونها الأقدار ، لأن القوم يقضون حاجاتهم بطريقة طبيعية جدا »[٢] .

على أن التكيف الحسى جعله يسلم بالأمر الواقع شيئا فشيئا .

وكانت البندقية تستمتع بانحلالها اللطيف ، فحوالى ١٧٧٨ وصف كارلو جوتسى فى مبالغة تغار على الفضيلة ما بدا له أنه انحلال عام فى الأخلاق :

« إن منظر النساء وقد انقلبن رجالا ، والرجال نساء ، وكلهم نسانيس ، وكلهم غارقون . . . فى دوامة الموضة ، يفسدون ويغوون بعضهم بعضا بلهفة كلاب الصيد تجرى وراء رائحة الفريسة ، ويتنافسون فى شهواتهم وسرفهم المدمر . . . ويحرقون البخور . . . لبريابوس[٣] . (إله الشهوة) »

وفى ١٧٩٧ ألقى اللوم على الفلسفة فى هذا الانهيار :

« أن الدين ، ذلك الكابح الصحى لشهوات البشر . . . قدأصبح هزؤا بين الناس . ولست أملك إلا الإيمان بأن المشنقة مفيدة للمجتمع ، لأنها أداة لعقاب الجريمة وردع من تحدثه نفسه بالإجرام . ولكن فلاسفتنا العصريين تبددوا بالمشنقة زاعمين أنها تحيز ظالم وهكذا زادوا جرائم القتل على الطريق العام والسرقات وأعمال العنف مائة ضعف .

« وقد أكدوا لنا أن ابقاء النساء فى بيوتهن لرعاية بنيهن وبناتهن . . . والأشراف على خدمة الأسرة واقتصادها ، إنما هو تحيز بال وهمى . وللتوانطلقت النساء من بيوتهن معربدات كالباخوسيات ، صائحات « الحرية ... الحرية ...» وغصت الشوارع بهن . . . وأسلمن أثناء ذلك عقولهن الطائشة إلى الموضات والبدع التافهة ، والملاهى ومغامرات الحب ومظاهر الدلال وسائر السفاسف . . . أما الأزواج فلم يؤتوا من الشجاعة ما يمكنهم من مقاومة هذا التدمير لشرفهم ومالهم وأسرهم ، وخافوا من أن يشهر بهم ويرموا بهذه الكلمة الرهيبة ، كلمة « التحيز » . . . فقد وصفت مكارم الأخلاق ،

والحشمة ، والعفة ، بأنها تحيز . . . وحين أكرهت جميع هذه التحيزات المزعومة على الهروب . . . ظهر الكثير من النعم الكبرى والبركات العظمى. كالكفر ، والاطاحة بالاحترام والتوقير ، وقلب العدالة رأساً على عقب... وتشجيع المجرمين والرثاء لهم ، والخيالات الملتهبة ، والأحاسيس المرهفة ، والغرائز البهيمية ، والانهماك فى جميع اللذات والشهوات ، والترف العاتى . . . والتفاليس . . . والخيانات الزوجية[٤] » .

ولكن أسباب الانحلال الرئيسية كانت بالطبع اقتصادية وحربية ؛ ذلك أن البندقية فقدت ثراءها الذى أتاح لها الدفاع عن قوتها وعلى النقيض منها ازدادت قوة غريمتها النمسا البشرية ازديادا مكنها من السيطرة على كل المداخل البرية إلى بحيرات البندقية ، ومن خوض بعض حملاتها الحربية على أرض الجمهورية المحايدة العاجزة .

وفى ٩ مارس ١٧٨٩ انتخب لودوفيكومانن لرئاسة الجمهورية — وكان بذلك آخر الأدواج المائة والعشرين الذين تعاقبوا على كرسى رئاسة البندقية فى استمرار رائع منذ عام ٦٩٧ . وكان رجلا ذا ثراء طائل وشخصية هزيلة ، ولكن ما كان فى طوق الفقر أو الشجاعة أن يردا عنه مأساته . ذلك أن الباستيل سقط بعد أربعة أشهر ، وتسلطت عبادة الحرية على خيال فرنسا ، وحين أقبل هذا الدين مع فيالق نابليون اكتسح كل ايطاليا تقريباً تحت رايته وبقوة نشوته . وفرض الكورسيكى الظافر بظاهرة ثمانون ألف جندى على ملكة الادرياتيكى حكومة مؤقتة أملاها بنفسه (١٢ مايو١٧٩٧) محجاً بأن القوات النمساوية قد استعانت عليه بأرض البندقية ، ومتهما البندقية بأنها ساعدت أعداءه سراً . فى ذلك اليوم أعطى الدوج مانن قلنسوة الرئاسة لأحد أتباعه بعد أن استقال ، وأمره قائلا « خذها بعيداً عنى فان نحتاج اليها ثانية[٥] » وبعد أيام مات . وفى ١٦ مايو احتلت الجنود الفرنسية المدينة . وفى ١٧ أكتوبر وقع بونابرت فى كاميوفورميو معاهدة نقلت البندقية وكل الأقاليم التى تمتلكها تقريباً إلى النمسا فى مقابل تنازلات من النمسا لفرنسا فى البلجيك وضفة الرين اليسرى . وحدث هذا بالضبط

بعد ألف وماثة عام من انتخاب أول دوج لحكم بحيرات البندقية والدفاع عنها .

أما بارما فكانت محمية أسبانية ، ولكن دوقها ، الدون فيليبي ، ابن فيليب الخامس وايز ابيالا فارنيزى ، تزوج لويزا اليزابث ابنة لويس الخامس عشر ، وقد عود نفسه عاداتها المسرفة وجعل بلاطه فرسايا مصغرة ، وأصبت بارما مركزاً للثقافة تختلط فيه أساليب الحياة العالمية فى بهجة ومرح ، يقول كازانوفا « لقد خيل إلى اننى لم أعد عائشاً فى ايطاليا ، فكل شيء بدا منتميا للجانب الآخر من الألب ، ولم يكن المارة يتكلمون إلا الفرنسية والأسبانية[٦] » . وقام وزير مشتنير يدعى جيوم دوتيو باصلاحات حافزة للدوقية . هنا كانت تنتج مصنوعات من أبدع أنواع النسيج والبللور والقاشانى .

أما ميلان فقد شهدت توسعا صناعيا ينبيء فى تواضع بما بلغته من تفوق اقتصادى فى إيطالية اليوم . ذلك أن الحكم النمساوى أرخى قبضته على قدرات الأهالى وإقدامهم . وتعاون الكونت كارل يوزف فون فرميان ، حاكم لومبارديا ، مع الزعماء الوطنيين على تحسين الإدارة ، وحد من السلطة الظالمة التى كان يمارسها البارونات الأقطاعيون والإوليجركيون فى المدن . وظهرت طائفة من أحرار الاقتصاد يتزعمهم بيترو فرى ، وتشيزارى بونيزانا دى بيكاريا ، وجوفانى كارلى ، أعتنقت مبادىء الفزيوقراطيين ، وألغوا المكوس على التجارة الداخلية ، وأنهوا نظام الالتزام الضرائبى ، ووزعوا العبء بفرض الضرائب على الأملاك الكنسية . ونمت صناعة النسيج حتى أنتظمت فى ١٧٨٥ تسعا وعشرين شركة تشغل ١٣٨٤ نولا . ومسحت الأراضى ، ومولت الدولة مشروعات الرى ، وأشتغل الفلاحون بهمة صادقة . وفى السنوات الإحدى والعشرين فيما بين ١٧٤٩ و ١٧٧٠ إرتفع سكان الدوقية من ٩٠,٠٠٠ إلى ١٣٠,٠٠٠[٧] . فى فترة انتعاش ميلانو هذه بنى مجتمعها التياترو الاسكالا (١٧٧٦ — ٧٨) ، الذى إتسع لـ ٣,٦٠٠ متفرج تحيط بهم زخارف فاخرة كزخارف القصور ، وأحتوى تسهيلات

للموسيقى ، والسمر ، والأكل ، ولعب الورق ، والنوم . وفوق هذا كله صهريجاً للمياه صمم لاطفاء أى حريق . هنا ظفر تشيما روزا وكيروبينى بأنتصارات مدوية .

وكان العصر عصر البطولة لكورسكا . لقد كانت تلك الجزيرة الجبلية الصغيرة مثقلة بأحداث التاريخ . فالفينيقيون القادمون من آسيا الصغرى أقاموا مستعمرة فيها حوالى ٥٦٠ ق . م . ثم قهرهم الأثروريون ، الذين قهرهم القرطاجنيون ، الذين قهرهم الرومان ، الذين قهرهم الروم البيزنطيون ، الذين قهرهم الفرنجة ، الذين قهرهم المسلمون ، الذين قهرهم إيطاليوتسكانيا ، الذين قهرهم البيزاويون ، الذين قهرهم الجنويون (١٣٤٧) . ومات فى ذلك القرن ثلثا السكان من الطاعون الأسود . وفى ظل الحكم الجنوى إنحدر الكورسيكيون الذين أرهقهم الوباء وغارات القراصنة ، والذين حرمت عليهم المناصب الكبرى وأثقلت كواهلهم بضرائب لا يطيقونها ، وانقلبوا إلى خال أشبه بالتوحش لم يحترم فيها قانون غير قانون الثورات العنيفة . . وأخفقت الثورات التى إندلعت بين الحين والحين لما أبتلى به القوم من غداوات طاحنة وما أفتقدوا من العون الأجنبى . أما جنوه ففى سبيل الدفاع عن حياتها ضد الجيوش النمساوية استنجدت بفرنسا لتعينها على حفظ النظام فى كورسكا . واستجابت فرنسا مخافة أن يستولى البريطانيون على الجزيرة ويستخدموها قلعة يتسلطون منها على البحر المتوسط ، فاحتلت الجنود الفرنسية أياتشو وغيرها من الحصون الكورسيكية (١٧١٩ — ٤٨) . ولما بدا أن الأمن قد أستتب إنسحب الفرنسيون ، وعاد سلطان جنوة إلى سابق عهده ، وبدأت ثورة باولى التاريخية .

وقد سبق بأسكالى دى باولى هذا بطولات غاريبالدى بقرن كامل . وقد وصفه اللورد شاتام بأنه « واحد من هؤلاء الرجال الذين لم يعد الناس يعثرون عليهم إلا فى صفحات بلوتارخ[٨] » . ولد (١٧٢٥) أبنا لثائر كورسيكى وتبع أباه إلى المنفى ، ودرس فى نابلى على يد الاقتصادى المتحرر جينوفيزى ، وخدم فى جيش نابلى ، ثم عاد إلى كورسيكا (١٧٥٥)

وأختير ليقود تمردا على جنوه . وبعد عامين من القتال أفلح فى طرد الجنويين من الجزيرة إلا بعض مدنها الساحلية فلما ولى رئاسة الجمهورية الجديدة بالأنتخاب (١٧٥٧ — ٦٨) أظهر فى ميدان التشريع والإدارة نبوغا لا يقل عن نبوغه فى إستراتيجية الحرب وتكتيكها . فقد وضع دستورا ديمقراطيا ، وقمع الثورات ، وألغى حقوق أمراء الأقطاع الظالمة ، ونشر التعليم ، وأسس جامعة فى عاصمته كورتى .

وأضطرت جنوه لعجزها عن قهره إلى بيع الجزيرة لفرنسا (١٥ مايو ١٧٦٨) بمليونى فرنك . ووجد باولى الآن نفسه يقاتل جنودا فرنسيين يعززون بالأمداد المرة بعد المرة . وكان سكرتيره ومساعده فى ذلك الوقت كارلو بونابرتى ، الذى ولد له ابن سماه نابليونى بالياتشو فى ١٥ أغسطس ١٧٦٩ . فلما قهر الفرنسيون باولى فى بونتينوفو (مايو ١٧٦٩) طلق هذا النضال الذى لا أمل فيه ولجأ إلى انجلتره ، وهناك منحته الحكومة معاشا ، وأذاع بوزوبل أسمه ، وكان جونسون واحداً من أصدقائه . على أن الجمعية الوطنية لفرنسا الثورة استدعته من منفاه ، وأشادت به « بطلا وشهيدا للحرية » وعينته حاكما على كورسيكا ، (١٧٩١) . ولكن المؤتمر الفرنسى حكم بأن فى ميوله اليعقوبية قصورا ، فأرسل لجنة لخلعه ، وخف الجنود البريطانيون لنجدته ، ولكن القائد البريطانى أستولى على الجزيرة وأعاد باولى إلى انجلتره (١٧٩٥) . ثم جرد نابليون قوة فرنسية لتطرد البريطانيين (١٧٩٦) ، ورحب أهل الجزيرة بالفرنسيين بأعتبارهم موفدين من قبل « الكورسيكى » ، وإنسحب البريطانيون ، وخضعت كورسيكا لفرنسا .

أما توسكانيا فقد إزدهرت تحت حكم كبار الأدواق الهابسبورج الذين خلفوا آل مديتشى (١٧٣٨) . وبعد أن إتخذ حاكمها الأسمى فرانسوا اللورينى النمسا مقرا له لزواجه من ماريا تريزا ، فوض الحكم إلى مجلس وصاية يرأسه زعماء وطنيون نافسوا الميلانيين الأحرار فى أصلاحاتهم الاقتصادية ، فقد حققوا حرية التجارة الداخلية فى الغلال (١٧٦٧) قبل أن يبذل طورجو محاولة كمحاولتهم فى فرنسا بسبع سنين . وحين مات فرانسوا

(١٧٦٥) خلفه دوقا أكبر أبنه الأصغر ليوبولد ، الذى تطور حتى أصبح واحدا من أجرأ وأشجع « المستبدين المستنيرين » . كبح الفساد فى المناصب ، وأصلح القضاء والإدارة والمالية ، وسوى بين الناس فى الضرائب ، وألغى التعاذيب والمصادرة وحكم الإعدام ، وأعان الفلاحين ، وجفف المستنقعات وأتى الأحتكارات ، ونشر حرية التجارة وحرية المؤسسات التجارية ، وسمح للكومونات بالحكم الذاتى ، وتطلع إلى وضع دستور شبيه بالدساتير الديمقراطيه للدوقيه . وقد راع جوته ما شهده من نظافة المدن التوسكانية النسبية وصلاحية الطرق والكبارى ، وجمال الأشغال العامة وفخامتها[٩] . وحين أصبح يوزف أخوليوبولد امبراطورا أوحد ، أعان ليوبولد على الغاء معظم الأمتيازات الإقطاعية فى تسكانيا ، وأغلاق كثير من الإديرة ، والحد من سلطة الأكليروس .

وفى ميدان الاصلاحات الكنسية تلقى ليوبولد تعاونا صادقا من سكبيونى دى ريكى أسقف بستويا وبراتو . وكان فى تسكانيا عرف قاسى يقضى على جميع الفتيات اللاتى لا مهور لهن بالرهبنة ، وأنضم ريكى إلى الدوق الكبير فى رفع السن الدنيا لنذر الرهبنه وتحويل الكثير من الإديرة إلى مدارس للبنات . واتخذت التدابير لنشر التعليم غير الدينى بأحلال المدارس العلمانية محل مدارس اليسوعيين . وكان ريكى يتلو القداس بالأيطاليه ، ويقاوم الخرافات ، الأمر الذى أساء كثيراً إلى جماهير الشعب . فلما شاع أنه ينوى إزالة « حزام العذراء مريم » الشهير فى براتو لأنه زائف ، أحدث الشعب شغبا ونهبوا قصر الأسقف . على أن ريكى دعا رغم ذلك مجمعاً أسقفيا أنعقد فى بستويا عام ١٧٨٦ وأعان مبادىء تذكر بـ « المواد الغالية » الصادرة فى ١٦٨٢ ، ومفادها أن السلطة الزمنيه مستقلة عن السلطة الروحية (أى أن الدولة مستقلة عن الكنيسة) ، وأن البابا عرضة للخطأ حتى فى الأمور المتصلة بالعقيدة .

وكان ليوبولد يحيا حياة البساطة ، وأحبه الناس لطباعه الفطرية غير المتكلفة . ولكن حين امتد حكمه وأرهقته خصومة السنين بات ظنونا معتزلا للناس ، واستخدم عدداً غفيرا من الجواسيس ليكونوا له عيوناً على مساعديه

وأعدائه على السواء . وقد أسدى له يوزف النصيحة من فيينا قائلا : « دعهم يغشونك أحيانا ، فهذا خير من أن تعذب نفسك عذابا متصلا لا غناء فيه ».(١٠) فلما غادر ليوبولد فلورنسه ليخلف يوزف امبراطوراً (١٧٩٠) انتصرت قوى الرجعية فى تسكانيا وأدان البابا پيوس السادس ريكى فى ١٧٩٤ وأودعه السجن (١٧٩٩ — ١٨٠٥) حتى سحب هرطقاته . ورد قدوم حكومة نابليون (١٨٠٠) الأحرار إلى سابق سلطانهم .

وهرول جوته إلى روما عبر تسكانيا . استمع إليه وهو يكتب فى أول نوفمبر ١٧٨٦ :

« وأخيراً وصلت إلى عاصمة العالم العظيمة هذه . . وكأنما طرت طيراناً فوق جبال النيرول . إن شوقى لبلوغ روما كان شديدا . . حتى كان التفكير فى التخلف فى أى مكان ضربا من المحال ، وحتى فلورنسا لم أمكث فيها سوى ثلاث ساعات . والآن ، كما أخالنى سأظفر بالهـدوء مدى الحياة ، فلنا أن نقول إن حياة جديدة تبدأ حين يرى الإنسان بعينيه كل مالم يسمع أو يقرأ عنه من قبل إلا قليلا . وأنا الآن أرى جميع أحلام شبابى تتحقق أمام عينى » .

وأى خليظ يدير الرؤوس كانت روما القرن الثامن عشر وهى تشغى بالشحاذين والنبلاء ، بالكرادلة والخصيان المغنين ، بالأساقفة والبغايا ، بالرهبان والتجار ، باليسوعيين واليهود ، بالفنانين والمجرمين ، بالفتاك والقديسين ، وبالسياح يبحثون عن الآثار نهارا وعن الغوانى ليلا . وهنا ، وعلى إثنى عشر ميلا من أسوار المدينة ، مدرجات وثنية وأقواس نصر ، وقصور ونافورات من عهد النهضة ، وثلاثمائة كنيسة وعشرة آلاف قسيس و ١٧٠,٠٠٠٠ نسمة . ومن حول الفاتيكان قلعة المسيحية الكاثوليكية ، عاش صنف من الرعاع كانوا أشد ماعرف العالم المسيحى صخباً وتمرداً وعداءاً للأكليروس . وكانت الكراسات البذيئة المهاجمة للكنيسة يطاف بها فى الشوارع ، والمهرجون يقلدون فى سخرية فى الميادين العامة أقدس مراسم القداس . ولعل فنكلمان وهو الرجل الحى الرقيق كان يبالغ قليلا حين قال :

« فى النهار يسود روما هدوء معتدل ، أما فى الليل فإن الشيطان ينطلق من عقاله . ونتيجة للحرية الكبيرة التى تسود هنا ، ولعدم وجود أى نوع من أنواع الشرطة ، يتصل الشجار وضرب النار وإطلاق الصواريخ والألعاب النارية فى جميع الشوارع الليل كله . . والجماهير عاصية لا تخضع لسلطان ، وقد أعيا الحاكم كثرة النفى والشنق [١١] » .

كانت روما مدينة تتسم بطابع العالمية أكثر حتى من باريس — يختلط فيها الفنانون والطلاب والشعراء والسياح بالأحبار والأميرات فى الصالونات وقاعات الفن والمسارح .

هنا كان فنكلمان ومنجز يبشران بإحياء الطراز الكلاسيكى ، وهنا كان البابوات المرهقون المحاصرون يكافحون لتهدئة ثائرة الجماهير التى طحنها الفقر بالخبز والبركات الروحية ، ولتعطيل السفراء الذين يلحون فى إلغاء الطائفة اليسوعية والحفاظ على صرح المسيحية المعقد بأسره من الأنهيار تحت وطأة التقدم العلم وهجمات الفلسفة .

ولكن لنمضى قدما مع جيته إلى نابلى . لقد خيل إليه أنه لم يشهد قط مثل هذه الفرحة بالحياة :

« إذا كان فى استطاعة المرء وهو فى روما أن يعكف من فوره على الدراسة ، فليس فى استطاعته هنا أن يفعل شيئا إلا أن يعيش . فأنت تنسى نفسك والعالم ، وأنا عن نفسى أجده شعورا غريبا أن أتنقل مع قوم لا يفكرون إلا فى الاستمتاع بالحياة . . . هنا لا يعرف الناس شيئا بعضهم عن بعض . وقلما يلحظون أن غيرهم يسيرون أيضا فى طريق سيرهم جنبا إلى جنب معهم . وهم يجرون سحابة نهارهم خلفا وأماما فى فردوس دون أن يتلفتوا حولهم ، ولو بدأ فكا الجحيم المجاوران ينفتحان ويثوران ، فإنهم يستنجدون بالقديس يتيواريوس [١٢] .

وكان الدون كارلوس بعد رحيله عن نابلى قاصدا أسبانيا فى ١٧٥٩

قد أوصى بمملكة نابلى وصقلية إلى ابنه فرديناند الرابع البالغ من العمر ثمانية أعوام ، بوصاية المركيز دى تانوكى وواصل تانوكى حرب الكنيسة التى بدأها على عهد كاراوس . فألغى الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ولم يتردد فى اتباع تعليمات شارل الثالث ملك أسبانيا بطرد اليسوعيين . فما أن انتصف ليل ٣ — ٤ نوفمبر ١٧٦٧ حتى قبض الجند على جميع أعضاء الطائفة فى المملكة ، وقادوهم — وهم لا يحملون من مقتنياتهم سوى الثياب التى عليهم — إلى أقرب ثغر أو نقطة حدود ، ومن هناك رحلوا إلى الولايات البابوية .

ولما بلغ فرديناند الرابع عامه السادس عشر (١٧٦٧) أنهى وصاية تانوكى . وبعد عام تزوج ماريا كارولينا ، الابنة التقية لماريا تريزا . وسرعان ما سيطرت على زوجها وتزعمت حركة رجعية ضد سياسات تانوكى المناهضة لرجال الدين . وكانت اصلاحات المركيز قد قوت ملكية نابولى ضد نبلاء الاقطاع والكنيسة ، ولكنها لم تحقق شيئا يذكر فى تخفيف الفقر الذى لم يترك للجماهير أملا إلا فى الآخرة .

وانتهجت صقلية نهجا مماثلا . فكان بناء كتدرائية بلرمو (١٧٨٢ — ١٨٠٢) أهم وأخطر فى نظر الشعب من محاولة دومنيكو دى كاراكولى ترويض أمراء الإقطاع الذين سيطروا على البلاد . وكان قد عمل سنوات كثيرة سفيرا لنابلى فى لندن وباريس ، واستمع إلى البروتستنت والفلاسفة . فلما عين واليا على صقلية (١٧٨١) فرض الضرائب الباهظة على كبار ملاك الأراضى ، واختزل حقوقهم الاقطاعية على أقنانهم ، وأنهى ما كان لهم من امتيازات اختيار القضاة المحليين . ولكنه حين تجاسر على حبس أمير يحمى قطاع الطرق ، وأمر بانتقاص يومين من العطلات التى تمنح تكريما للقديس روزاليا حامى بارمو ، ثارت عليه جميع الطبقات ، وقفل إلى نابلى مهزوما (١٧٨٥) . (١٣) فالفلاسفة لم يكونوا قد برهنوا بعد على أنهم يفهمون حاجات الإنسان وطبيعته خيرا مما تفهمها الكنيسة .

٢ ـ البابوات والملوك واليسوعيون

استندت قوة الكنيسة الكاثوليكية على إيمان بالخوارق ركب فى فطرة البشر ، والتسليم بالدوافع الحسية والمخلفات الوثنية والتسامى بها ، وتشجيع الخصوبة الكاثوليكية ، وغرس لاهوت غنى بالشعر والأمل ، نافع للتهذيب الخلقى والنظام الاجتماعى . كذلك كانت الكنيسة فى إيطاليا المصدر الرئيسى للدخل القومى ، ورادعا معترفا بقيمته لشعب يؤمن إيمانا شديدا بالخرافات ، وثنى النزعة مشبوب العاطفة . وقد كثرت الخرافات بين الايطاليين ، فحتى (١٧٨٧) أحرقت الساحرات فى بلرمو ـ وقدمت المرطبات للنبيلات العصريات اللاتى حضرن هـذا المشهد . [١٤] وعاشت المعتقدات والعادات والمراسم الوثنية فى ظل موافقة الكنيسة عليها عن طيب خاطر . كتب جوته يقول « لقد انتهيت إلى الاعتقاد القاطع بأن كل آثار المسيحية الأصلية قد انقرضت هنا فى روما [١٥] » . على أنه بقى فى العالم المسيحى الكثير من المسيحيين الحقيقيين ، حتى فى إيطاليا . ومن هؤلاء الكونت كايسوتى دى كيوزانو ، أسقف أستى ، الذى نزل عن ميراثه الكبير ، وعاش فى فقر اختيارى ، وكان لا يسافر إلا راجلا . كذلك كان تستا أسقف مونريالى ينام على القش ، ولا يأكل إلا ما يمسك رمقه ولا يحتفظ من دخله إلا بثلاثة آلاف ليرة لحاجاته الشخصية ، ويخصص ما بقى منه للاشـغال العامة وللفقراء [١٦] .

وإستجابت الكنيسة لحركة التنوير إلى حد ما . وبالطبع أدرجت أعمال فولتير وروسو وديدرو وهلفتيوس ود ولباخ ولا مترى وغيرهم من أحرار الفكر فى قائمة الكتب المحرمة ، ولكن أبيح الحصول على إذن بقراءتها من البابا . وكان المونسنيور فنتمليو أسقف قطنيا (١٧٥٧ ـ ٧٣) يقتنى فى مكتبته طبعات كاملة من فولتير وهلفتيوس وروسو [١٧] . وألغيت محكمة التفتيش فى تسكانيا وبارما عام ١٧٦٩ ، وفى صقليه عام ١٧٨٢ ، وفى روما عام ١٨٠٩ . وفى ١٧٨٣ نشر قسيس كاثوليكى يدعى تابعورنى ، تحت اسم صديقه تراوتما نسدورف ، مقالا « فى التسامح الكنسى والمدنى »

أدان فيه محكمة التفتيش وحكم على كل ضروب الأكراه للضمير بأنها منافيه للمسيحية ، ودافع عن جميع أنواع اللاهوت إلا الإلحاد[١٨] .

وكان من سوء طالع البابوات فى نصف القرن الثامن عشر هذا أن يضطروا إلى مواجهة مطالبة الملوك الكاثوليك بحل جمعية اليسوعيين كلية . وكانت الحركة المناهضة لليسوعيين جزءا من صراع على القوة بين قومية الدولة الحديثة الظافرة ، ودولية بابوية أضعفتها حركة الأصلاح البروتستنتى وحركة التنوير وصعود طبقة رجال الأعمال . ولم يلح أعداء الجمعية الكاثوليك الحاحا سافرا بأعتراضهم الرئيسى عليها ، وهو أنها دأبت على تأييد سلطة البابوات بأعتبارها فوق سلطة الملوك ، ولكنهم كرهوا أشد الكره أن يشكل قيام منظمة لا تعترف برئيس غير رئيسها ، والبابا فى الواقع داخل كل دولة عميلا لسلطة أجنبية . وقد سلموا بغزارة علم اليسوعيين وتقواهم ، وبإسهاماتهم فى العلوم والأدب والفلسفة والفن ، وبتربيتهم المثابرة الفعالة للشباب الكاثوليكى ؛ وببطولتهم فى البعثات الأجنبية وباستعادتهم كثيرا من الأرض التى فقدتها الكاثوليكية وأستولت عليها البروتستنتية . ولكن التهمة التى وجهوها إلى الجمعية هى أنها كانت تتدخل المرة بعد المرة فى الشئون العلمانية ؛ وأنها أشتغلت بالتجارة طمعا فى الربح المادى ؛ وأنها غرست مبادىء الفتاوى التى تغتفر الفساد الخلقى والجريمة ، وأغضت حتى عن قتل الملوك ، وأنها سمحت للعادات والمعتقدات الوثنية بأن تعيش بين أتباعها المزعومين فى آسيا ؛ وأنها أساءت إلى الطوائف الدينية الأخرى وإلى كثير من الكهنة غير الرهبان ، بحدتها فى الجدل ونغمتها المشربة بالاحتقار . وأصر سفراء ملوك البرتغال وأسبانيا ونابلى وفرنسا على إلغاء الترخيص البابوى الخاص بالجمعية وعلى حل المنظمة رسميا وفى كل مكان .

على أن طرد اليسوعيين من البرتغال فى ١٧٥٩ ومن فرنسا فى ١٧٦٤ — ٦٧ ، ومن أسبانيا ونابلى فى ١٧٦٧ ، ترك الجمعية تواصل نشاطها فى وسط وشمالى إيطاليا ، وفى سيلزيا وبولنده . وفى ٧ فبراير ١٧٦٨ طردوا من دوقية بارما البوربونية ؛ وأضيفوا إلى حشد اللاجئين اليسوعيين فى ولايات

الكنيسة . واحتج البابا كلمنت الثالث عشر بأن بارما إقطاعة بابوية ، وهدد الدوق فرديناند السادس ووزراءه بالحرم إذا نفذ مرسوم الطرد . فلما أصروا أصدر مرسوما أعلن فيه مصادرة رتبة الدوق ولقبه والغاءهما . وبدأت الحكومات الكاثوليكية فى أسبانيا ونابلى وفرنسا حربا على البابوية . واستولى تانوتشي على مدينتى بنيفنتو وبونتيكورفو البابويتين واحتلت فرنسا أفنيون . وفى ١٠ ديسمبر ١٧٦٨ قدم السفير الفرنسى فى روما باسم فرنسا ونابلى وأسبانيا إلى البابا مطلبا بسحب المرسوم الموجه ضد بارما وبإلغاء جمعية اليسوعيين . وانهار الحبر الأعظم تحت وطأة هذا الانذار النهائى . وكان يبلغ من العمر آنذاك ستة وسبعين عاما ، فدعا لعقد مجمع من المطارنة والمبعوثين فى ٣ فبراير ١٧٦٩ لدراســة الأمر . وفى ٢ فبراير خر صريعا بانفجار عرق فى دماغه .

وانقسم الكرادلة الذين دعوا لاختيار خلف له فريقين : الغيورين الذين اقترحوا تحــدى الملوك ، والمهــدئين الذين آثروا التسويات الهادئة . ولما كانت الكثرة العظمى من الكرادلة الإيطاليين من فريق الغيورين الذين اجتمعوا سريعاً فى روما ، فقد حاولوا افتتاح المجمع قبل أن يصل فريق الكرادلة المهدئين من فرنسا وأسبانيا والبرتغال. واحتج السفير الفرنسى ، فأجل المجمع . وفى غضون هذا عرض لورنتسو ريكى قائد اليسوعيين قضيتهم للخطر إذ أصدر كراسة اعترضت على سلطة أى بابا فى إلغاء الجمعية [19] . وفى مارس وصل الكردنيال دبيرنى من فرنسا وبدأ طوافه على الكرادلة بهدف ضمان انتخاب بابا راغب فى ارضاء أصحاب الجلالة الكاثوليك . وقد رفض المؤرخون ، سواء منهم الكاثوليك [21] . وخصوم الكاثوليك [22] ، الشائعات التى زعمت بعد ذلك [20] أنه هو أو غيره رشوا أو أغرو بوسيلة ما الكردينال جوفانى جانجانللى بأن يعد بهذا إذا اختير لكرسى البابوية . وكان جانجانللى باجماع الكل رجلا عظيم الثقافة والتقوى والنزاهة ، بيد أنه كان ينتمى إلى طائفة الفرنسسكان التى طالمــا خاصمت اليسوعيين سواء فى ميدان البعثات التبشيرية أو اللاهوت [23] .

وفى ١٩ مايو ١٧٦٩ انتخب باجماع أراء الكرادلة الأربعين ، واتخذ اسم كلمنت الرابع عشر ، وكان يرمها فى الثالثة والستين .

ثم ألفى نفسه واقفاً تحت رحمة الدول الكاثوليكية . ففرنسا ونابلى تتشبثان بالأقاليم البابوية التى استولتا عليها ، وأسبانيا وبارما تتخذان موقف التحدى ، وهددت البرتغال باقامة بطريركية مستقلة عن روما ، بل أن ماريا تريزا التى كانت حتى ذلك الحين حارة الولاء للبابوية واليسوعيين ولكنها الآن فقدت سلطانها الذى انتزعه منها ابنها حر التفكير جوزف الثانى ، ردت على نداء البابا بطلب معونتها بأنها لاتستطيع مقاومة الإرادة الموحدة لمثل هذا للعدد الكبير من الملوك والحكام . وأصدر شوازيل الذى كان مسيطرا على حكومة فرنسا آنذاك تعليماته لبيرنى بأن يخبر البابا أنه « إذا لم يستطع التوصل إلى تفاهم مع فرنسا ففى استطاعته أن يعتبر كل علاقاته بها منتهية[٢٤] » .

وكان شارل الثالث ملك أسبانيا قد أرسل مثل هذا الانذار النهائى فى ٢٢ ابريل . أما كلمنت ، الذى حاول كسب الوقت ، فقد وعد شارل بأنه عن قريب « سأرفع إلى حكمة جلالتكم وذكائكم خطة للقضاء المبرم على الجمعية[٢٥] » . وأمر مساعديه بالرجوع إلى السجلات وتلخيص تاريخ جمعية اليسوعيين وانجازاتها وجرائمها المزعومة . ورفض التسليم بما طالب به شوازيل من الفصل فى النزاع خلال شهرين . وقد اقتضاه الفصل ثلاث سنين ، ولكنه أذعن فى النهاية .

ففى ٢١ يوليو ١٧٧٣ وقع الرسالة البابوية التاريخية ، وقد بدأت بقائمة طويلة من الجماعات الدينية التى حظرها الكرسى البابوى المقدس على مدى الأيام ، وذكرت الشكاوى الكثيرة التى رفعت ضد اليسوعيين ، والجهود الكثيرة التى بذلها مختلف البابوات لعلاج المساوىء المزعومة . « وقد لاحظنا ببالغ الحزن أن هـذه العلاجات وغيرها مما استعمل بعد ذلك لم يكن لها من الفاعلية أو القوة ما يضع حداً لهذه المتاعب والتهم

والشكاوى (٢٦) » . واختتمت الرسالة بهذه العبارات « وإذ تبين لنـا أن جمعية اليسوعيين لم تعد قادرة على أن تؤتى الثمرات الوفيرة والخير العظيم اللذين من أجلهما أسست ووافق عليها العدد الكبير من البابوات أسلافنا الذين شرفوها بالكثير من المزايا الجديرة بالإعجاب ، وإذ رأينا أنه من المستحيل تقريباً — بل أنه مستحيل إطلاقاً — على الكنيسة أن تتمتع بسلام صادق متين ما بقيت هذه الطائفة . . . فاننا بعد الفحص المتأنى ، ونتيجة لمعرفتنا الخاصة وبحكم كمال سلطتنا الرسولية ، نحل ونلغى بمقتضى هذه الرسالة البابوية جمعية اليسوعيين . ونبطل وناغى كل مناصبها ووظائفها وإداراتها ، ودورها ، ومدارسها ، وكلياتها وخلواتها ، وملاجئها وسائر المؤسسات التى تخصها على أى وجه كائنا ما كان وفى أى إقليم أو مملكة أو دولة لها وجود فيها(٢٧) » .

ثم وعدت الرسالة البابوية بصرف معاشات لليسوعيين الذين لم يرسموا بعد ويريدون العودة لحياة العلمانيين ، وأذن للكهنة اليسوعيين بالأنضمام إلى الأكليروس غير الرهبان أو بأى طائفة دينيه يوافق عليها الكرسى البابوى ، وسمح لليسوعيين المقبولين فى الرهبنه والذين ندروا أنفسهم نذرا نهائيا مطلقا بأن يبقوا فى بيوتهم السابقة شريطة أن يلبسوا رداء الكهنة غـير الرهبان ويخضعوا لسلطة الأسقف المحلى .

وفى معظم الحالات ؛ وبأستثناء بعض المبعوثين فى الصين ، تقبل اليسوعيون حكم الإعدام هذا الذى أصدره البابا على جمعيتهم بامتثال ونظام ظاهرين .. بيد أن كراسات غفل من اسم المؤلف طبعت ووزعت دفاعا عن قضيتهم ، وقبض على ريتشى وعدد من معاونيه بتهم لم تثبت عليهم قط بأنهم يتراسلون مع خصوم المرسوم . ومات ريتشى فى السجن فى ٢٤ نوفمبر ١٧٧٥ بالغا الثمانية والسبعين .

ولم يعش كلمنت الرابع عشر إلا عاما واحدا أو يزيد بعد المرسوم . وكثرت الشائعات بأن عقله اختل فى شهوره الأخيرة . وقد اجتمعت عليه

الأسقام ، ومنها الأسكربوط والبواسير ، لتجعل كل نهار وليل فى حياته شقاء تعاسة له . وأصابته فى إبريل ١٧٧٤ نزاة برد لم تبرحه قط ، ولم تحل نهاية أغسطس حتى كان الكرادلة يناقشون مسألة خلافته ، وفى ٢٢ سبتمبر قضى كلمنت نحبه .

وبعد الكثير من التأجيلات والدسائس أجلس مجمع الكرادلة على كرسى البابوية (١٥ فبراير ١٧٧٥) جوفانى براسكى الذى إتخذ اسم بيوس السادس . وكان رجلا مثقفاً أكثر منه سياسياً ، يجمع التحف الفنية ، ويسحر الجميع برقته ، وقد حسن إدارة الكوريا (الإدارة البابوية) وأستصلح بعض المستنقعات البونتيه . ورتب حلا وسطا موقتا مسالما لليسوعيين مع فردريك الأكبر . وفى ١٧٩٣ أنضم للحلف المعادى لفرنسا الثائرة . وفى ١٧٩٦ غزا نابليون الولايات البابوية ، وفى ١٧٩٨ دخل الجيش الفرنسى روما ، وأعلنها جمهورية ، وطالب البابا بالتخلى عن كل سلطاته الزمنية . ولكنه أبى ، فأعتقل ، وظل فى أماكن وحالات مختلفة من السجن حتى وفاته (٢٩ أغسطس ١٧٩٩) . أما خليفته بيوس السابع فقد جعل رد جمعية اليسوعيين إلى سابق عهدها (١٨١٤) جزءا من أنتصار التحالف على نابليون .

٣ — القانون وبيكاريا

ظلت أخلاق إيطاليا وسلوكها مزيجاً من العنف والتراخى ، من الثأر والحب . كتب موتسارت من بولونيا عام ١٧٧٠ ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره « إن إيطاليا بلد ناعس »[٢٨] ، ولم يكن قد تعلم فلسفة القيلولة . أما أبوه فكان رأيه فى ١٧٧٥ أن « الإيطاليين أوغاد فى كل أنحاء العالم»[٢٩].

وقد علق موتسارت وجوته كلاهما على الجريمة الإيطالية . كتب موتسارت يقول إن فى نابلى « زعيما للشحاذين يتقاضى من الملك خمساً وعشرين دوقاتيه كل شهر مقابل تهدئتهم لا أكثر»[٣٠]. وكتب جوته يقول « إن أكثر ما يلفت نظر الغريب هو كثرة الاغتيالات . واليوم كان الضحية فناناً ممتازا هو

شفندمان . . وقد طعنه القاتل الذى اشتبك معه عشرين طعنة ، فلما أقبل الحارس طعن الوغد نفسه. وليس هذا مايجرى به العرف هنا عموماً ،فالقاتل عادة يقصد أقرب كنيسة ، فمتى بلغها أصبح فى مأمن تام »[٣١]. وكانت كل كنيسة تعطى المجرم الأمان فى حرمها — أى الحصانة من الإعتقال مابقى تحت سقفها .

وحاول القانون كبح الجريمة بتشديد العقوبة أكثر مما حاولها بكفاية الشرطة . فقد نصت قوانين بندكت الرابع عشر الرحيم على عقوبات التجديف بالجلد ، فإذا تكررت الجريمة ثلاث مرات كان عقابها التشغيل خمس سنوات فى سفن الأسرى والعبيد . وكان السطو على دير للراهبات ليلا جناية كبرى ، إما مغازلة امرأة شريفة أو معانقتها علانية فعقابه التشغيل المؤبد على هذه السفن . وكان تشويه السمعة الخلقية ، حتى إذا لم يحتو غير الصدق يعاقب بالإعدام ومصادره الممتلكات.(ومع ذلك لم يقلل هذا من المقطوعات الهجائية) . ومثل هذه العقوبة فرضت على حمل الطبنجات المخبأة . على أن الجناة كانوا فى كثير من المناطق يتفادون هذه الأوامر بالفرار إلى دولة مجاورة أو بفضل رحمة القاضى ، أو الاحتماء بالكنيسة . ولكن العقوبات كانت تنفذ بصرامة فى حالات عديدة . من ذلك أن رجلا شنق لإدعائه أنه كاهن ، وآخر لسرقته ثوباً كهنوتيا باعه بفرنك وربع ، وثالث ضرب عنقه لكتابته خطابا اتهم البابا كلمنت الحادى عشر بعلاقة غرامية مع ماريا كلمنتينا سوبيسكا[٣٢]. وإلى تاريخ متأخر (١٧٦٢) كان السجناء تحطم أجسادهم على دولاب التعذيب ، عظمة بعد عظمة ، أو يسحلون على الأرض فى ذيل حصان مهموز . على أن من واجبنا أن نضيف جانباً أكثر إشراقاً على الصورة ، هو أن بعض الجمعيات الخيرات كانت تجمع المال لدفع غرامات السجناء وتحريرهم . وغدا إصلاح القانون ، سواء من حيث الإجرات أو من حيث العقوبات ، جزءاً طبيعياً من الروح الرحيمة التى أنجبها أبوان — حركة تنوير إنسانية ، وأخلاقيات مسيحية تحررت من لاهوت قاس .

ومن مفاخر إيطاليا أن يصدر أقوى نداء يدعو لإصلاح القانون فى هذا

القرن عن شريف ميلانى . وقد كان هذا الشريف — تشزارى بونيزانا ، مركيز بكاريا ، نتاج اليسوعيين والفلاسفة الفرنسيين . ومع أنه وهب من الثراء مايسمح له بحياة التبطل فإنه كرس نفسه بغيرة لا تفتر لحياة التأليف الفلسفى والإصلاح العملى . وقد أمسك عن مهاجمة دين الشعب ؛ ولكنه تصدى رأساً للظروف الفعلية للجريمة والعقاب . وقد صدمه أن يرى قذارة السجون الميلانية التى كانت مرتعاً للأمراض، وأن يسمع من السجناء كيف ولم اعتادوا الإجرام وكيف حوكموا على جرائمهم . وأفزعه أن يكتشف مخالفات صارخة فى الإجراءات القضائية ، وألواناً من التعذيب الوحشى للمشبوهين والشهود ، وضروبا من التعسف فى الأحكام سواء بالتشديد أو التخفيف ، وألواناً من القسوة الضارية فى العقاب . وحوالى ١٧٦١ انضم إلى بييتر وفيرى فى جمعية سمياها « البونيات » (قبضات الأيدى) — نذرت نفسها للعمل والفكر معاً . وفى ١٧٦٤ بدءا مجلة « المقهى» محاكاة لمجلة أديسون « سيكتيتر » . وفى ذلك العام نشر بيكاريا بحثه التاريخى « بحث فى الجرائم والعقوبات » .

وفى مستهل كتابه أعلن فى تواضع أنه يتأثر بخطى « روح القوانين » الذى ألفه « الرئيس الخالد » لبرلمان بوردو ، فالقوانين يجب أن ترسى على العقل ، ورائدها الأساسى ليس الانتقام من الجريمة بل حفظ النظام الاجتماعى ، وينبغى أن تستهدف دائماً « أوفر سعادة موزعة على أكبر عدد[٣٣] » . هنا قبل بنتام بخمسة عشر عاما ، نجد المبدأ الشهير لأخلاقيات مذهب المنفعة . واعترف بكاريا بصراحته المعهودة بتأثره بهلفتيوس ، الذى أورد هذه الصيغة ذاتها فى كتابة « فى الروح» (١٧٥٨) . (وكان قد صدر فى سلسلة فرانسس هتشسن « أفكار فى الجمال والفضيلة » (١٧٢٥). وقال بكاريا أن توسيع التعليم وتعميقة أملا فى الحد من اد لجرائم أصوب لمصلحة المجتمع من الالتجاء إلى عقوبات قد تحول شخصا أجرم عرضا من مخالطته المجرمين إلى مجرم عريق . فالواجب أن يكون لكل متهم الحق فى محاكمة عادلة وعلنية أمام قضاة أكفاء يتعهدون بالحياد والنزاهة . ويجب أن تقفو المحاكمة الإتهام سريعاً ؛ وأن يكون العقاب متناسباً مع

الضرر الواقع على المجتمع لامع نية الفاعل . فضراوة العقوبة تولد ضراوة الخلق ، حتى فى الجمهور غير المجرم . أما التعذيب فيجب عدم الإلتجاء إليه اطلاقاً ، فالمذنب الذى تعود على الألم قد يحتمله فى تجلد وتفترض براءته ، فى حين قد يكره الألم بريئاً مرهف الأعصاب على الإعتراف بأى شىء فيحكم بأنه مذنب . ويجب ألا يسمح بعد بحماية الكنيسة للمجرمين ، ويجب إلغاء عقوبة الإعدام .

وطبع الكتيب ست طبعات فى ثمانية عشر شهراً ، وترجم إلى اثنتين وعشرين لغة أوربية . وأشاد بكاريا بالترجمة الفرنسية التى قام بها مورلليه وقال أنها أفضل من الأصل . وقد شارك فولتير بمقدمة غفل من الاسم لتلك الترجمة ؛ وأقر المرة بعد المرة بأثر بكاريا فى جمهوره لإصلاح القانون . وبادرت معظم الدويلات الإيطالية إلى اصلاح قوانين عقوباتها . ولم يحل عام ١٧٨٩ حتى كانت أوربا كلها تقريباً قد ألغت التعذيب . وتأثرت كاترين ببكاريا كما تأثرت بفولتير فى الغاء التعذيب فى أملاكها . أما فردريك الأكبر فكان قد أنهاه فعلا فى روسيا (١٧٤٠) إلا فى حالات الخيانة .

وفى ١٧٦٨ عين بكاريا فى كرسى للقانون والاقتصاد أنشىء خصيصاً له فى كلية البالاتين بميلان . وفى ١٧٩٠ عين فى لجنة لإصلاح القضاء فى لمبارديا . وقد سبقت محاضراته عدة أفكار أساسية لآدم سمث ومالتاس فى تقسيم العمل والعلاقة بين العمال ورأس المال ، وبين السكان وكمية الطعام . وفيه بعثت «انسانية» النهضة الأوربية من جديد فى صورة التنوير فى ايطاليا .

٤ — مغامرات

١ — كاليوسترو

ولد جوزيبى بلسامو لصاحب متجر ببلرمو فى ١٧٤٣ . ونضج مبكرا وسرعان ما أصبح لصاً بارعاً . وفى الثالثة عشرة قيد تلميذا فى دير

البنفراتيللى . وعين هناك مساعدا لصيدلى الدير ، فتعلم من قواريره ومخابيره وكتبه من الكيمياء والخيمياء ما يكفى لاعداد نفسه لاحتراف الشعوذة الطبية . . . ولما كلف بأن يقرأ حياة القديسين على الرهبان وهم يتناولون طعامهم ، استبدل بأسماء القديسين أسماء أشهر مومسات بلرمو. وجلد عقاباً له ، فهرب من الدير وانضم إلى عالم المجرمين السفلى ، ودرس فن الأكل دون بذل العرق . واشتغل قواداً ومزوراً ومزيفاً للنقود ، وقارئاً للبخت ، وساحراً ، ولصا ، وأفلح عادة فى إخفاء آثاره بمهارة عجزت معها الشرطة عن إدانته إلا بالوقاحة .

فلما رأى نفسه مشبوها على نحو يضايقه ، أنتقل إلى مسينا ، وعبر إلى ريدجو كالأبريا ، وجرب الفرص التى تتيحها نابلى وروما . وتكسب فترة بادخال لمسات على نسخ الصور وبيعها على أنها من صنعه . ثم تزوج لورنتسا فيلكيانى ، وأثرى ببيع جسدها . وأنتحل اسم المركيز دى بللجرينى ، وأخذ نبيلته المكسبة إلى البندقية ومرسليا وباريس ولندن . ثم دبر أن تمسك زوجته بين ذراعى كويكرى ثرى ؛ وعاشا على المال الذى ابتزاه نتيجة للخطة شهورا . ثم غير أسمه إلى الكونت دى كاليوسترو ، وتنكر بشوارب ولبس حلة كولونيل بروسى ،وسمى زوجته من جديد بالكونتيسه سيرافينا . ثم عاد إلى بلرمو ، وقبض عليه بتهمة التزوير ، ولكن أفرج عنه تحت الحاح منذر بالشر من أصحابه الذين روعوا القضاء .

وإذ بليت مفاتن سيرافينا لكثرة تداولها ، فقد أخذ يطبق ما تعلم من كيمياء فجهز وباع العقاقير التى ضمن إزالتها التجاعيد وتأجيجها لنار العشق . ولما عاد إلى إنجلتره أتهم بسرقة قلادة من الماس وقضى فترة فى السجن ثم انضم إلى جماعة الماسون وانتقل إلى باريس ، وادعى أنه الرئيس الأكبر للماسون المصريين . وأكد لعشرات السذج أنه عثر على الأسرار القديمة لاعادة الشباب ، الذى يمكن تحقيقة بعلاج يمتد أربعين يوما تستعمل فيه المسهلات والمعرقات وغذاء من الجذور ، والحجامة ، والتيوصوفية[٣٤]. وكان كلما أفتضح أمره فى مدينة مضى إلى غيرها ؛ واتصل بأسرها الفنية

بفضل طريقة المصافحة وخاتمه الماسونيين . وفى سانت بطرسبرج أشتغل طبيبا ، وعالج الفقراء مجانا ؛ وأستقبله بوتمكين ، ولكن طبيب كاترين الكبرى ، وكان اسكتلنديا حاذقا ، حلل بعض أكاسير هذا الطبيب ووجدها فارغة لاقيمة لها . فسمح لكاليوسترو بيوم وأحد يحمل فيه بضاعته ويرحل . وفى وارسو أفتضح أمره ثانية على يد طبيب آخر فى كتيب سماه « نزع القناع عن كاليوسترو » (١٧٨٠) ، ولكن قبل أن يدركه كان قد إنطلق إلى فيينا وفرانكفورت وستراسبورج . وهناك سحر الكردينال الأمير لوى — رينيه — إدوارد روهان ، الذى وضع فى قصره تمثالا نصفيا لزعيم الماسون الأكبر كتب عيله « كاليوسترو المقدس » وأتى به الكردينال إلى باريس ، وتورط النصاب الكبير على غير قصد منه فى قصة القلادة الماسية. فلما أنكشفت هذه الخدعة زج بكاليوسترو فى الباستيل ؛ ولكن سرعان ما أفرج عنه لبراءته . ولكنه أمر بمغادرة فرنسا (١٧٨٦) . فوجد زبائن جددا فى لندن . وزار جوته أثناء ذلك أم كاليوسترو فى صقلية وأكد لها أن ولدها الذائع الصيت قد أطلق سراحه وأنه فى مأمن[٣٥] (*) .

وفى لندن حيث تكاثر المتشككون فى أمره انتقل الكونت والكونتيسة إلى بازل وتورين وزوفبريتو وترنت ، يشتبه فيهما فى كل بلد ثم يطردان . وتوسلت إليه سيرافينا ان يأخذها إلى روما لتصلى عند قبر أمها ، فوافق الكونت . وفى روما حاولا أن يقيما محفلا لماسونيته المصرية ، فقبضت عليهما محكمة التفتيش (٢٩ ديسمبر ١٧٨٩) ، واعترفا بأنهما دجالان نصابان ؛ فحكم على كاليوسترو بالسجن مدى الحياة ، وأنهى أيامه فى قلعة سان ليو قرب بيزارو فى ١٧٩٥ وقد بلغ الثانية والخمسين . وهكذا كان هو أيضا جزءآ من صورة القرن المستنير .

٢ — كازانوفا

أضاف جوفانى يا كوبو كازانوفا لقب « دى سينجالت » الفحم لاسمه

(*) أنبهر جوته بحياة كاليوسترو وجعلها موضوعا لتمثيلية متوسطة الجودة سماها « زعيم الماسون الأكبر » .

بتفنيط عشوائى الأبجدية ، باعتبار هذا اللقب تشريفا يفيد فى أبهر الراهبات وتحدى حكومات أوربا . ولد لممثل وممثلة فى البندقية عام ١٧٢٥ ، وظهرت عليه منذ طفولته امارات النشاط الذهنى . تتلمذ لاحتراف القانون ، وزعم أنه نال الدكتوراه فى جامعة بادوا وهو فى السادسة عشرة . وعلينا فى كل خطوة من « مذكراته » الشائقة أن نكون على حذر من شطط خياله ، ولكنه يقص قصته بصراحة يدين بها نفسه إدانة تحملنا على تصديقه حتى ونحن نعلم أنه يكذب .

وبينما كان فى بادوا حقق أول غزواته — وهى بتينا ، « فتاة جلوة فى الثالثة عشرة » وأخت لمعلمه الكاهن الطيب جوتسى . فلما مرضت بالجدرى عنى بها كازانوفا وأصيب بالمرض . ويزعم فى روايته أن أعمال الرحمة التى كان يقوم بها كانت تعدل غزواته الغرامية . وحين ذهب فى شيخوخته إلى بادو لآخر مرة ، « الفيها عجوزا ، مريضة ، فقيرة ، وقد ماتت بين ذراعى » . (٣٧) وكل عشيقاته تقريبا يصورهن مغرمات به إلى النهاية .

على أنه عانى من فقر مذل رغم درجته القانونية . مات أبوه ، وكانت أمه تمثل فى مدن بعضها وصل فى بعده حتى سانت بطرسبورج ، وتنساه عادة . وكسب بعض المال من عزف الكمان فى الحانات والشوارع . ولكنه وهب القوة كما وهب الوسامة والشجاعة . فلما أصيب السناتور البندقى زوان براجادينو (١٧٤٦) بالنقطة وهو يهبط السلم ، احتمله ياكوبو بين ذراعيه وأنقذه من سقطة فجائية . وبعدها بسط عليه السناتور حمايته فى مآزق كثيرة وزوده بالمال لزيارة فرنسا وألمانيا والنمسا . وفى ليون انضم إلى الماسون الأحرار ، وفى باريس « أصبحت رفيقا ، ثم رئيسا للطائفة » . (ونحن نلحظ فى شىء من الدهشة قوله « فى زمنى لم يكن فى فرنسا من يعرف كيف يبالغ فى الأسعار ») (٣٨) .

وفى ١٧٥٣ عاد إلى البندقية ، وسرعان ما لفت نظر الحكومة باحترافة حكمة السحر والتنجيم . وبعد عام أبلغ محقق رسمى مجلس الشيوخ عنه فقال :

لقد أفلح فى التسلل إلى قلب الشريف زوان براجادينو . . . . وابتز ماله ابتزازا باهظا . . . . . وقد أخبرنى بنديتو بيزانو أن كازانوفا بسبيله إلى أن يصبح فياسوفا قبلانيا وأنه يحاول التكسب بالحجج الزائفة يموه بها فى مهارة على عقول ضحاياه . . . . . وقد أمكنه . . . . . اقناع براجادينو بأن فى استطاعته استحضار ملاك النور لينفعه . (٣٩)

ويضيف التقرير أن كازانوفا قد بعث إلى أصحابه بكتابات تشى بحقيقته مفكرا ملحدا . ويقول كازانوفا « لقد وقر فى نفسى سيدة تدعى مدام ممنو أننى أعلم ولدها مبادىء الإلحاد(٤٠) » .

« أن التهم التى وجهت إلى تتعلق بالكرسى (البابوى) المقدس ، والكرسى المقدس وحش ضار من الخطر أن تمسه . وكانت هناك ظروف معينة . . . جعلت من الصعب عليهم حبسى فى السجون الكنسية التابعة لمحكمة التفتيش ، ولهذا السبب تقرر فى النهاية أن تناط محكمة تفتيش الدولة « بمحاكمتى (٤١) » .

ونصحه براجادينو بالرحيل عن البندقية ، ولكن كازانوفا أبى . وفى الغداة قبض عليه ، وصودرت أوراقه ، وحبس دون محاكمة فى البيومبى « ألواح الرصاص » وهو اسم أطلق على سجن الدولة البندقى نسبة إلى ألواح الرصاص المسقوف بها .

« حين جن الليل استحال على أن أغمض عينى لأسباب ثلاثة : أولها الفران ، وثانيها الطنين الرهيب الذى تحدثه ساعة كتدرائية القديس مرقس التى كانت تدق وكأنها فى حجرتى ، وثالثها ألوف البراغيث التى أغارت على بدنى تعضنى وتلدغنى وتسمم دمى بحيث أصابتنى انقباضات عنيفة بلغت حد التشنجات »(٤٢) .

وحكم عليه بالسجن خمس سنين ، ولكنه هرب بعد أن ظل رهين محبسه خمسة عشر شهرا (١٧٥٧) بفضل سلسلة معقدة من الحيـــل

والمخاطرات والأهوال أصبحت روايته لها جزءا من « عدة نصبه » فى كثير من الأقطار .

فلما عاد ثانية إلى باريس اشتبك فى مبارزة مع فتى يدعى الكونت نيكولا دلانور دوقرن وأصابه بجرح ، ثم شفاه بمرهم « سحرى » ، وكسب صداقته . فقدمه إلى عمة له غنيه تسمى مدام دورفيه ، كانت شديدة الإيمان بقوى السحر ، مؤملة أن تستعين بها على تغيير جنسها . واستغل كازانوفا سذاجتها ، ووجد فيها وسيلة خفية للاثراء .

« إننى لا أستطيع وقد شخت الآن أن أرجع ببصرى إلى هذا الفصل من حياتى دون أن أحمر خجلا» (٤٣) . وهذا اتصل على مدى فصول كثيرة أخرى من كتابه . وأضاف إلى دخله بالغش فى لعب الورق ، وتنظيم يانصيب للحكومة الفرنسية ، وبالحصول على قرض لفرنسا من الأقاليم المتحدة . وفى الرحلة من باريس إلى بروكسل « قرأت كتاب هلفتيوس « فى الروح » طول الطريق » . (٤٤) (وسيقدم للمحافظين مثالا مقنعا من إنسان حر التفكير انقلب رجلا فاسقا وان كانت المرحلة التالية هى العكس فى أغلب الظن) . وكان فى كل محطة يلتقط خليلة ، وفى كثير من المحطات يجد خليلة سابقة ، وبين الحين والحين يقع مصادفة على ذرية له لم يقصد انجابها .

وزار روسو فى مونمورنسى ، وفولتير فى فرنيه (١٧٦٠) وقد سبق أن استمتعنا بشطر من ذلك الحديث الخاص بينهما . وإذا جاز لنـــا أن نصدق كازانوفا ، فانه اغتنم الفرصة ليوبخ فولتير على فضحه سخافات الميثولوجيا الشعبية :

كازانوفا : هيك نجحت فى القضاء على الخرافة ، فماذا تحل محلها ؟

فولتـــير . يعجبنى هـــذا ! حين أخلص البشرية من وحش ضار يفترسها ، أتسألنى ماذا أحل محله ؟

كازانوفا : ان الخرافة لا تفترس البشرية ، بل انهـــا على العكس ضرورية لوجودها .

فولتـــير : ضرورية لوجودها ! ذلك تجديف مخيف . انى أحب البشر ، وأود أن أراهم أحرارا سعداء مثلى . والخرافة والحرية لا يمكن أن يسيرا يدا بيد . أتظن أن العبودية تؤدى إلى السعادة ؟

كازانوفا : ان ما تريده إذن هو سيادة الشعب ؟

فولتـــير : معاذ الله ! يجب أن يكون للجماهير ملك يحكمها .

كازانوفا : فى هذه الحالة تكون الخرافة ضرورية ، لأن الشعب لن يعطى رجلا هو مجرد إنسان حق حكمه . . .

فولتـــير : أريد ملكا يحكم شعبا حرا ، ويلتزم قبله بشروط متبادله تمنع أى ميل من جانبه للاستبداد .

كازانوفا : يقول أديسون أن هذا الملك . . . يستحيل وجوده . وأنا متفق مع هوبز . فعلى المرء أن يختار من الشرين أقلهما ضررا . والأمة التى تحررت من الخرافة هى أمة من الفلاسفة ، والفلاسفة لا يعرفون كيف يطيعون . . وما من سعادة ترجى لشعب لا يسحق ويذل ويظل مصفدا بالقيود .

فولتـــير : هذا شنيع ! وأنت فرد فى الشعب ! . . .

كازانوفا : ان العاطفة المسيطرة عليك هى حبك للبشرية . . وهذا الحب يعميك . أحب البشرية ، ولكنى أحبها كما هى . فالبشرية ليست قابلة للمزايا التى تود أن تغدقها عليها ، فهذه المزايا لن تزيدها إلا تعاسة وانحرافا . . . . .

فولتـــير : يؤسفنى أن يكون لك هـــذا الرأى السيىء فى اخوانك فى الإنسانية (٤٥) .

وكان كازانوفا يشق طريقه أينما ذهب إلى بيت من البيوت الارستقراطية ،

لأن الكثير من النبلاء الأوربيين كانوا ماسونا ، أو روزيكروشيين أو مدمنين على علوم السحر . وهو لم يقتصر على ادعاء العلم الغيبي فى هذه الميادين ، بل أضاف إلى دعواه القوام الممشوق ، والوجه المتميز (وإن لم يكن وسيما) والتمكن من اللغات ، وتأكيد الذات الخداع ، ومعينا من القصص والفكاهات ، وقدرة خفية غامضة على الكسب فى لعب الورق أو ألعاب الكازينوات . وكان حينما ذهب يساق عاجلا أو آجلا إلى السجن أو حدود البلاد . واضطر بين الحين والحين إلى الاشتباك فى مبارزة . ولكنه كالأمة فى مراحل تاريخها لم يخسر قط .

وأخيرا غلبه الحنين إلى وطنه . وكان حرا فى السفر أينما شاء فى إيطاليا إلا فى البندقية . والتمس الاذن مرارا بالعودة ، وأخيرا منحه ، وفى ١٧٧٥ عاد إلى البندقية . واستخدمته الحكومة جاسوسا ، وكان نصيب تقاريره الإهمال لاحتوائها على الكثير جدا من الفلسفة والقليل جدا من المعلومات ، فرفت . وانتكس إلى عادات صباه وكتب هجاء للشريف جريمالدى ، فأمر بأن يبرح البندقية وإلا واجه السجن مرة أخرى فى « ألواح الرصاص » ففر إلى فينا (١٧٨٢) . ثم إلى سبا ، ومنها إلى باريس .

وهناك التقى بالكونت فون فالدشتين . الذى أحبه فدعاه إلى العمل أمينا لمكتبته فى قلعة دوكس ببوهيميا . وكانت فنون كازانوفا فى العشق والسحر وخفة اليد قد وصلت إلى نقطة تقلصت فيها عائداتها ، فقبل الوظيفة براتب ألف فلورن فى العام . فلما وصل وتسلم منصبه ، أحزنه أن يكتشف أنه اعتبر خادما . وأن يتناول غداءه فى قاعة الخدم . وفى دوكس انفق أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره . وهناك كتب « تاريخ حياتى » « أولا لتخفيف هـــذا الركود المميت الذى يقتلنى فى بوهيميا الخاملة هذه . . . وقد استطعت بالكتابة عشر ساعات أو اثنتى عشرة كل يوم أن أمنع الحزن الأسود من نهش قلبى المسكين واتلاف عقلى » (٤٦) : وقد زعم الصدق المطلق فى روايته . وهى فى كثير من الحالات تتفق والتاريخ فى الجزء والسخرية . بيد أننا كثيرا ما نفتقر إلى إثبات صحة روايته ،

ولعل ذاكرته تداعت بينما قوى خياله . ولا نملك إلا القول بأن كتابه من أكثر مخلفات القرن الثامن عشر فتنة واستهواء للقارئين .

وقد عمر كازانوفا حتى ناح على موت النظام القديم فقال : « إيه يا فرنسا العزيزة الجميلة ! — البلد الذى كانت الأمور فى تلك الأيام تجرى فيه رخاء رغم أوامر الاعتقال الملكية ، ورغم السحرة ورغم فقر الشعب ! أى فرنسا العزيزة ، إلام انتهى أمرك اليوم ؟ لقد أصبح الشعب ملكا عليك ، الشعب الذى هو أشرس الحكام قاطبة وأشدهم ظغيانا »(٤٧) .

وهكذا فى آخر أيامه ، وهو ٤ يونيو ١٧٩٨ ، اختتم حياته فى تقوى أتته فى أوانها . « لقد عشت فيلسوفا ، وهأنذا أموت مسيحيا »(٤٨) . لقد حسب الفسق فلسفة ، ورهان بسكال مسيحية .

٥ — فنكلمان

ولننظر الآن إلى رجل مثالى على سبيل المقابلة بين الاضداد .

وهذا الرجل الذى كان أعظم الشخصيات أثرا فى تاريخ الفن فى هـــذا العهد لم يكن فنانا بل دارسا كرس حياته الناضجة لدراسة تاريخ الفن ، وحرك موته الغريب روح أوربا المثقفة . ولد فى ٩ ديسمبر ١٧١٧ بمدينة ستندال فى براندنبورج . وكان أبوه الاسكاف يأمل فى أن يحترف ابنه حرفته ، ولكن يوهان رغب فى درس اللاتينية . وقد أدى نفقات تعليمه الباكر بالغناء . ثم تقدم سريعا مدفوعا بشوقه واجتهاده . فكان يعلم التلاميذ الذين تنقصهم الكفاية ، ويشترى الكتب والطعام . فلما كف بصر معلمه كان يوهان يقرأ له ، وراح يلتهم مكتبة أستاذه . وأجاد تعلم اللاتينية واليونانية ، ولم يكن ميالا إلى اللغات الأجنبية الحديثة . وحين سمع بأن مكتبة يوهان ألبرت فابريكوس الدارس الكلاسيكى الشهير ستباع بالمزاد لوفاته ، سار ١٧٨ ميلا من برلين إلى همبرج ، واشترى روائع الكتب اليونانية واللاتينية ، وحملها على كتفه عائدا إلى برلين(٤٩) . وفى ١٧٣٨ دخل جامعة هاله طالب لاهوت ، ولم يكن به شغف باللاهوت ، ولكنه اغتنم الفرصة

لدراسة العبرية . وبعد أن تخرج كسب قوته بتعليم التلاميذ الخصوصيين وقرأ مرتين كل قاموس بيل « القاموس التاريخى والنقدى » . ولعل هذه القراءة خلفت بعض الأثر على إيمانه الدينى . وفى عام واحد قرأ الالياذة والاوديسة ثلاث مرات من أولهما لآخرهما باليونانية .

وفى ١٧٤٣ قبل دعوة ليكون مديرا معاونا لمدرسة بزيهاوزن فى ألتمارك ، بمرتب قدره ٢٥٠ طالرا فى العام . وكان فى النهار يعلم «أطفالا جرب الرءوس أبجديتهم ، بينما كنت ... أتحرق شوقا لمعرفة « الجميل » ، وأردد تشبيهات من هومر »[٥٠] . وكان فى المساء يدرس لتلاميذه الخصوصيين ليحصل على نفقات مسكنه وطعامه ، ثم يعكف على الروائع الكلاسيكية حتى منتصف الليل وينام حتى الرابعة ، ثم يعود إلى روائعه الكلاسيكية ثانية ، ثم يخرج متعبا ليدرس . وقبل بابتهاج دعوة وجهها إليه الكونت فون بون بوثاو ليكون مساعدا لأمين المكتبة فى قصره الريفى بنوتهنتز ، قرب درسدن ، لقاء السكن وخمسين إلى ثمانين طالرا فى العام (١٧٤٨) . هناك ألفى المتعة البالغة فى مجموعة من أضخم مجموعات الكتب فى ذلك العصر .

وممن كانوا يختلفون إلى هـذه المكتبة الكردينال أركنتو ، القاصد البابوى فى بلاط ناخب سكسونيا . وقد راعه علم فنكلمان وحماسته ، ونحوله وشحوبه . فقال له « ينبغى أن تذهب إلى إيطاليا » . وأجاب يوهان أن هذه الرحلة غاية مشتهى قلبه ، ولكن موارده تعجز عن نفقتها . ودعاه القاصد لزيارته بدرسدن ، فذهب إليه مرات . وقد أبهجه تفقه اليسوعيين الذين التقى بهم فى بيت القاصد وأدبهم . وعرض عليه الكردينال باسيونى — وكان يقتنى ٣٠٠,٠٠٠ مجلد فى روما — وظيفة أمين مكتبته هناك ، لقاء السكن والمعيشة وسبعين دوقاتية ، ولكن الوظيفة لا يمكن أن يشغلها غير كاثوليكى . ووافق فنكلمان على الدخول فى الكاثوليكية . وإذا كان قد أعرب من قبل عن إيمانه بأنك « بعد الموت ليس هناك ما يخيفك ، ولا ما تؤمل فيه »[٥١] فإنه لم يجد صعوبات لاهوتية فى هذا التحول ، وكل صعوباته كانت اجتماعية . وقد كتب إلى صديق لأمه يقول « ان حب

المعرفة ، وهذا الحب وحده ، هو الذى يستطيع إغرائى بالاستماع إلى الاقتراح الذى عرض على » [٥٢] (*) .

وفى ١١ يوليو ١٧٥٤ ، فى مصلى القاصد بدرسدن ، أعلن إيمانه الجديد ، واتخذت الترتيبات لرحلته إلى روما . ولاسباب شتى مكث فى درسدن عاما آخر ، ساكنادارسا مع الرسام — النحات — الحفار آدم اويزن . وفى مايو ١٧٥٥ نشر فى طبعة محدودة لم تتجاوز خمسين نسخة أول كتبه « خواطر فى تقليد الآثار اليونانية فى الرسم والنحت » . وقد وصف فيه الآثار التى جمعت فى درسدن ، ورأى بالإضافة إلى هذا الوصف أن فهم اليونان للطبيعة كان أسمى من الفهم العصرى لها . وهذا هو السر فى التفوق المثالى فى الفن . ثم اختتم بقوله « إن سبيلنا الوحيد إلى العظمة ، بل إلى العظمة التى لا تحاكى . . . هو بمحاكاة القدماء » . [٥٦] ومن رأيه ان رفائيل دون جميع الفنانين المحدثين هو الذى حقق هذا الهدف الاسمى . وكان هذا الكتيب علامة بداية للحركة الكلاسيكية الجديدة فى الفن الحديث . وقد لقى قبولا طيبا ، وأجمع كلويشتوك وجوتشيد على الاشادة بعلمه وأسلوبه . وحصل الأب راوخ . كاهن الاعتراف الخاص بفردريك أوغسطس ، لفنكلمان من الملك الناخب على معاش من مائتى طالر لكل من العامين التاليين ، وأعانه بثمانين دوقاتية لرحلته إلى روما . وأخيرا ، فى ٢٠ سبتمبر ١٧٥٥ ، انطلق فنكلمان إلى إيطاليا فى صحبة يسوعى شاب . وكان قد بلغ السابعة والثلاثين .

(*) أنظر « باتر » فى مقاله الرائع عن فنكلمان « لعله كان يحس بعراقة ما وبشئ أشبه بالفخامة الوثنية فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وهو فى انصرافه عن البروتستنتية لمعقدة التى كانت مبعث سأم له فى شبابه ، قد يدور بخلده أنه بينما كانت روما قد راضت نفسها على النهضة ، فان المبدأ البروتستنتى فى الفن قد عزل ألمانيا عن تقليد الجمال العظيم » (٥٣) . وكتب جوته فى كتيب عن فنكلمان (١٨٠٤) « ان المزج الوثنى يشع من جميع تصرفاته وكتاباته . . . ولا بد أن نذكر بعده عن كل أسلوب مسيحى فى التفكير ، لا بل كرهه العام لهذا الأسلوب ، حين نحاول الحكم على هذا التحول المزعوم فى مذهبه . فالفريقان اللذان انقسم إليهما الدين المسيحى كانا فى نظره أمرا لا أهمية له على الاطلاق » (٥٤) . « ولا تعنى كلمة « وثنى » بالضرورة الالحاد . فطالما أكد فنكلمان إيمانه بالله ، ولكن « بإله جميع الالسنة والامم والمذاهب » . (٥٥)

فلما بلغ روما لقى عنتا فى حمرك المدينة الذى صادر عدة مجلدات لفولتير من حقائبه ، على أنها أعيدت له بعد ذلك . ووجد سكنا مع خمسة مصورين فى بيت على التل الينسى — الذى قدسته ظلال نيقولا بوسان وكلود لوران . والتقى بمنجز ، الذى أعانه بشتى الطرق الكثيرة . واطلق له الكردينال باسيوني الحرية فى العمل بمكتبته ، ولكن فنكلمان كان إلى الآن يرفض أى وظيفة ثابته لرغبته فى ارتياد فن روما . فحصل على إذن بزيارات متكررة لبلفيدير الفاتيكان وأنفق الساعات أمام تماثيل أبوللو ، وهرقول النصفى ، واللاوكون ، واتخذت أفكاره شكلا أوضح بعد تأمله فى هذه المنحوتات . وزار تيفولى وفراسكاتى وغيرهما من الضواحى ذات الاطلال القديمة . وأكسبه حبه للفن القديم صداقة الكردينال الساندرو البانى ، وأعطاه الكردينال أركنتو مسكنا فى البلاتسوديللا كانسلليريا — وهو المقر البابوى ، وفى مقابل هذه المنحة أعاد فنكلمان تنظيم مكتبة القصر. وأصبح الآن فى سعادة غامرة . قال « لقد كان الله مدينا لى بهذا ، فانى قاسيت كثيراً جداً فى شبابى » [٥٧] . وكتب إلى صديق فى ألمانيا كما كان يكتب عشرات الزوار الكبار :

« كل شىء صفر إذا قورن بروما ! لقد ظننت فيما مضى أننى درست كل شىء دراسة كاملة ، وهأنذا ادرك بعد مجيئى أننى لم أعرف شيئا . لقد أصبحت هنا أصغر مما كنت يوم خرجت من المدرسة إلى مكتبة بوناو . فإذا شئت أن تتعلم كيف تعرف الرجال ، فهذا مكانك ، هنا رؤوس ذات مواهب لا حد لها ، رجال أوتوا قدرات فائقة ، وآيات فى الطابع الرفيع الذى خلعه اليونان على تماثيلهم . . . وكما أن الحرية التى يتمتع بها الناس فى الدول الأخرى ليست إلا ظلا إذا قيست بحرية روما — وهو ما قد تخاله مفارقة — كذلك تجد فى هذه المدينة أسلوبا مختلفا فى التفكير . فروما فى اعتقادى هى المدرسة العليا للعالم ، وأنا أيضا امتحنت فيها وهذبت » [٥٨] .

وفى أكتوبر ١٧٥٧ غادر روما قاصدا نابلى مزودا بخطابات تعريف .

وسكن هناك ديرا ولكنه كان يتناول طعامه مع رجال كتانوكى وجاليانى ، وزار مدنا عابقة باريج التاريخ القديم — بوتسولى ، وبايا ، وميزينوم ، وكاوماى — ووقف مدهوشا أمام هياكل بايستوم المهيبة . وفى مايو ١٧٥٨ قفل إلى روما محملا بذخائر العلم بالآثار . فى ذلك الشهر استدعى إلى فلورنسه ليصنف ويوصف المجموعة الضخمة من الجواهر ، والمحفورات ، والخرائط ، والمخطوطات التى خلفها البارون فليب فون ستوش . وشغلته المهمة قرابة عام وكادت تهدم صحته . ومات أركنتو أثناء ذلك ، واجتاح فردريك الأكبر أرض سكسونيا ، وفقد فنكلمان مسكنه فى الكانسليريا ومعاشه من الملك الناخب التعس . وخف ألبانى لنجدته إذ قدم له أربع حجرات وعشرة أسكوزات فى الشهر لقاء العناية بمكتبته . وكان الكردينال نفسه أثريا متحمسا ، وفى كل أحد كان يركب مع فنكلمان لتصيد التحف القديمة .

وأضاف فنكلمان جديدا إلى سمعته باصداره كتيبات عميقة فى هذه الموضوعات المفردة « فى جمال الأعمال الفنية ، ملاحظات على عمارة القدماء ، وصف لتمثال هرقول النصفى فى البلفدير ، دراسة الآثار الفنية » . وفى ١٧٦٠ حاول ترتيب رحلة إلى اليونان مع الليدى أورفورد ، زوجة أخى هوراس ولبول ؛ ولكن الخطة أخفقت . كتب يقول « ما من شىء فى الدنيا تقت إليه بحرارة كهذه الرحلة . وما كنت لاضن بأصبع من أصابعى تقطع ، لا بل وددت أن أجعل من نفسى كاهنا لسيبيل (إلاهة الطبيعة) لو استطعت أن أشهد هذا البلد فى فرصة كهذه » [٥٠] أما كهنة سيبيل فكان الشرط فيهم أن يكونوا خصيانا ، ولكن هذا لم يمنع فنكلمان من التنديد بأمر قديم للحكومة الرومانية يشترط تغطية الأعضاء الداخلية لابوللو واللاردكون وغيرهما من التماثيل فى البلفدير بمآزر من المعدن ، وقد أعلن فى « إنه لم يشرع فى روما طوال عهدها مثل هذه السنة الغبية » .

وكان للاحساس بالجمال من السلطان عليه ما ألغى تقريبا كل وعى فيه بالجنس . فإذا شعر بتفضيل جمالى فإن تفضيله يؤثر جمال جسم الذكر المكتمل

الرجولة عن حلاوة المرأة الهشة العابرة . ويبدوا أن تمثال هرقول النصفى (التورسو) قد أثر فيه أكثر مما أثرت خطوط جسد فينوس مديتشى الناعمة الملفوفة . وقال كلمة طيبة فى الحناثى — على الأقل فى التمثال الذى شهده فى فيللا بورجيزى [٦٠] . وقال مؤكدا « لم أكن فى حياتى عدوا للجنس الآخر ، ولكن أسلوب حياتى أبعدنى عن كل اتصال به . ولعلى كنت أتزوج ، وأكبر ظنى انه كان واجبا على أن أفعل ، لو أننى عدت إلى زيارة وطنى الأول ، أما الآن فإن هذا لا يكاد يخطر لى ببال » [٦١] . وفى زيهاوزن كانت صداقته لتلميذه لامبريشت تقوم مقام التعلق بالمرأة ، وفى روما عاش مع رجال الكنيسة ، وندر أن التقى بالشباب من النساء . وذكروا « إنه كان يتناول العشاء فى السبوت فترة طويلة مع فتى من روما ، نحيل وسيم الطلعة ، فارع القامة ، يتحدث معه عن الحب . » [٦٢] وقد « رسمت بناء على طلبه صورة لمغن جميل من الخصيان » [٦٣] ثم إنه أهدى للشريف الفتى البارون فريدرش راينهولد فون برج « رسالة فى القدرة على الاحساس بالجمال » ، « وقد وجـــد القراء فيها وفى خطاباته لبرج لغة الحب لا لغة الصداقة ، وهى فى الواقع كذلك » [٦٤] .

وفى ١٧٦٢ و ١٧٦٤ عاد إلى زيارة نابلى . وقد قدم للدارسين الأوربيين فى « خطاب عن آثار هوكولانيوم » (١٧٦٢) و « تقرير عن أحدث كشوف هوكولانيوم » (١٧٦٤) أول معلومات منظمة وعلمية عن الكنوز التى تم الحفر عنها فى تلك المدينة وفى بومبى . وكان الآن معترفا به أعظم حجة فى الفن الكلاسيكى القديم . وفى ١٧٦٣ عين بالفاتيكان فى وظيفة « أثرى الحجرة الرسولية » وأخيرا ، فى ١٧٦٤ ، نشر المجلدات الضخمة التى كان يؤلفها ويحليها بالصور طوال سنوات سبع Geschichte der Kunst des Alterthums «تاريخ الفن القديم» . وقد احتوى الكتاب على أخطاء كثيرة رغم ما أنفق فى إعداده من وقت وجهد ، واثنان من هذه الأخطاء كانا خدعتين قاسيتين . ذلك أن صديقه منجز كان قد درس رسمين هما وليدا خيال منجز وزعم

إنهما نسختان دقيقتان لصور أثرية . وأدرج فنكلمان الصورتين فى كتابه ، واستعمل الرواسم وأهدى الكتاب كله لمنجز . وتضمنت المترجمات التى ظهرت سريعا فى الفرنسية والإيطالية كل الأخطاء تقريبا ، مما أشعر فنكلمان بالخزى ، فكتب إلى بعض أصحابه « إننا اليوم أحكم مما كنا بالأمس . ليتنى أستطيع أن اريك كتابى « تاريخ الفن » وقد نقح تنقيحا كاملا ووسع توسيعا كبيراً ! لم أكن قد تعلمت الكتابة بعد حين شرعت فى تأليفه فلم تكن الأفكار مترابطة بدرجة كافية ، وفى مواضع كثيرة افتقار إلى الانتقال من السابق إلى اللاحق — وهو ملاك الفن الأسمى . »[٦٥] ومع ذلك أنجز الكتاب عملا غاية فى العسر — هو إجادة الكتابة فى الفن . وقد رفعه حبه الشديد لموضوعه إلى مستوى الأسلوب الجميل .

ولقد اتجه حرفيا إلى تاريخ الفن لا إلى تاريخ الفنانين ، وهو موضوع أيسر مأخذا بكثير . وبعد أن مسح مسحا متعجلا الفن المصرى والفينيقى واليهودى والفارسى والاتروري ، أطلق العنان لحماسته الفياضة فى ٤٥٠ صفحة تناولت فن اليونان القديم . وفى فصول ختامية ناقش الفن اليونانى فى عهد الرومان . وكان توكيده دائماً على اليونان لأنه كان مقتنعا بأنهم عثروا على أسمى صور الجمال : فى رهافة الخط لا فى لمعة اللون ، فى تمثيل الأنماط لا الأفراد ، فى طبيعية الأجسام ونبلها ، فى انضباط التعبير العاطفى ، فى هدوء المظهر وصقله ، فى اطمئنان القسمات حتى فى الحركة ، وفوق هذا كله فى النسبة والعلاقة المتسقتين بين الأجزاء المتميزة فى كل موحد توحيداً منطقياً . لقد كان الفن الإغريقى فى رأى فنكلمان هو عصر العقل مجسما .

وقد ربط تفوق الفن الإغريقى بالاحترام العظيم الذى كان الإغريق يكنونه لامتياز الجسد فى الجنسين . « كان الجمال امتيازا يقضى إلى الشهرة ، لأننا نجد تواريخ الإغريق تذكر أولئك الذين تميزوا به »[٦٦] ، على نحو ما تفعل التواريخ الآن فى ذكر كبار الساسة والشعراء والفلاسفة . وكانت هناك مباريات فى الجمال عند الإغريق كما كانت مباريات للألعاب الرياضية . وعند فنكلمان أن الحرية السياسية ، وتزعم اليونان لعالم البحر المتوسط

قبل حرب الباوبونيز ، هذان أفضيا إلى مركب من العظمة والجمال ، وانتجا « الطراز الفخم » فى فيدياس وبوليكليتس ، وميرون . وفى المرحلة التالية أخلى الطراز الفخم الطريق للطراز « الجميل » أو طراز « الرشاقة» ، فأخلى فيديايس مكانه لبراكستليس ، وبدأ الاضمحلال . وكانت حرية الفن جزءاً من الحرية اليونانية ، وتحرر الفنانون من القواعد الصارمة وجرءوا على خلق أجساد مثالية لاتوجد فى الطبيعة . فلم يقلدوا الطبيعة إلا فى التفاصيل ، وكان العمل الفنى كله مجموعة كمالات لاتوجد فى أى شىء طبيعى إلا جزئيا . لقد كان فنكلمان رومانتيكيا يبشر بالشكل الكلاسيكى .

ولقى كتابه القبول فى أوربا بأسرها باعتباره حدثاً فى تاريخ الأدب والفن. وأرسل إليه فردريك الأكبر دعوة (١٧٦٥) للحضور إلى برلين مشرفاً على المكتبة الملكية وإدارة الآثار . ووافق فنكلمان نظير ألفى طالر فى العام ، وعرض فردريك ألفاً فقط ، وأصر فنكلمان على موقفه ، وذكر فردريك بقصة المغنى الخصى الذى طالبه بمبلغ ضخم نظير أغانية ، فشكا فردريك من أنه يطلب أكثر مما يكلفه خير قواده ، فكان رد المغنى « إذن فليكلف قائده بالغناء » .

وفى ١٧٦٥ عاد فنكلمان لزيارة نابلى ، هذه المرة فى صحبة جون ولكز الذى كان قد جعل أوربا تدوى بتحديه للبرلمان ولجورج الثالث . وبعد أن جمع المزيد من المعلومات عاد إلى روما وأكمل كتابه الهام الثانى « آثار قديمة غير منشورة » (١٧٦٧) . وكان أصدقاؤه من الأحبار قد شكوا من كتابته « تاريخه » بالألمانية التى لم تكن إلى ذلك الحين أداة كبرى من أدوات الدرس فأبهجهم الآن باستعماله الإيطالية ، وانتشى المؤلف السعيد ، الجالس بين كردينالين ، بقراءة جزء من كتابه فى كاستل جاندولفوا على كلمنت الثالث عشر وجمع غفير من الأعيان . على أنه أتهم بحيازته كتبا مهرطقة وابدائه ملاحظات مهرطقة . [٦٨] ولم يحصل من البابوية قط على المنصب الذى شعر بأنه جدير به .

وقرر أن يزور ألمانيا (١٧٦٨) ربما مؤملا أن يحصل فيها على مورد يمكنه من رؤية بلاد اليونان . ولكن استغراقه الشديد فى الفن الكلاسيكى وأساليب الحياة الإيطالية أفقده اللذة فى وجوده بأرض الوطن ، فتجاهل مناظرها الطبيعية وساءه معمارها وزخارفها الباروكية . وكان يردد مائة مرة لرفيق رحلته »[٦٩] « لنعد إلى روما »وقد احتفى به القوم فى ميونخ ، وأهدوه جوهرة أثرية رائعة . وفى فيينا أعطته ماريا تريزا مداليات غالية ، ودعته الامبراطورة والأمير فون كاونتز للإقامة هناك ، ولكنه مالبث أن قفل إلى إيطاليا فى ١٨ مايو وهو لم يكد يغيب عنها شهرا واحدا .

وفى تريستا تعطل انتظاراً لسفينة يستقلها إلى انكونا . وأثناء أيام الانتظار هذه تعرف إلى مسافر آخر يدعى فرانشسكو اركانجيلى . وكانا يتمشيان معاً ويشغلان حجرتين متجاورتين فى الفندق . وسرعان ما أراه فنكلمان المداليات التى تلقاها فى فيينا . على أنه — على قدر علمنا — لم يره كيسه المملوء بالذهب . وفى صبيحة ٨ يونيو ١٧٦٨ دخل أركانجيلى حجرة فنكلمان ، ووجده جالساً إلى منضدة ، فألقى أنشوطة حول عنقه ، ونهض فنكلمان واشتبك معه ، فطعنه أركانجيلى خمس مرات وفر هارباً . وضمد طبيب جروحه ولكنه قال أنها مميتة . وتناول فنكلمان الأسرار المقدسة ، وأملى وصيته ، وأعرب عن الرغبة فى أن يرى مهاجمه ويصفح عنه ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة فى الرابعة بعد الظهر . وقد خلدت تريستا ذكراه بتمثال جميل .

وقبض على أركانجيلى فى ١٤ يونيو . فاعترف بجريمته ، وفى ١٨ يونيو صدر عليه هذا الحكم : « عقابا على جريمة القتل التى اقترفتها على جسد يوهان فنكلمان . . قضت محكمة الجنايات الامبراطورية بأن . . . تحطم حيا على دولاب التعذيب ، من رأسك إلى قدميك حتى تفارق روحك بدنك » وكذلك صنع به فى ٢٠ يوليو .

كانت عيوب فنكلمان وثيقة الصلة بالجغرافيا . فلأنه لم يحقق قط أمله فى زيارة اليونان فى ظروف كانت ستتيح له الدرس المستفيض للآثار القديمة ،

كان يفكر فى الفن اليونانى وكأنه الفن اليونانى الرومانى كما وجده فى المتاحف والمجموعات والقصور فى ألمانيا وإيطاليا ، وفى اطلال هركولانيوم وبومبي . وتفضيله النحت على التصوير ، وتمثيل الأنماط لا الأفراد ، والهدوء لا التعبير عن العاطفة ، وايثاره النسبة والتناسق ، ومحاكاة القدامى دون الابتكار والتجريب . كل هذا فرض أعلى الدوافع الخلاقة فى الفن عدة قيود أسفرت عن الانتقاص الرومانتيكى على ما فى الأشكال الكلاسيكية من الصرامة الباردة . وقد أعماه التركيز على اليونان والرومان عن حقوق الطرز الأخرى وإمكاناتها ، وكان يرى — كما رأى لويس الرابع عشر — إن رسوم الحياة اليومية التى انتجتها الأراضى الواطئة ليست إلا من قبيل « الجروتسك » .

ومع ذلك كان انجازه رائعا . فقد أحدث انتفاضة فى كل دنيا الفن والأدب والتاريخ الأوربى بتمجيده لليونان . ولقد جاوز حدود النزعة الشبيهة بالكلاسيكية التى نزعت إليها إيطاليا النهضة وفرنسا لويس الرابع عشر إلى الفن الكلاسيكى ذاته . ونبه العقل الحديث إلى ما فى النحت اليونانى من كمال ناصع مطمئن . وجعل من فوضى مئات التحف الرخامية والبرونزية والصور والمجوهرات والعملات آثار علمية . وكان تأثيره على أفضل العقول فى الجيل التالى هائلا . فقد ألهم لسبخ ، ولو بالاعتراض على أرائه ، وشارك فى انضاج هيردر وجوته ، ولعله لولا الالهام الذى انبعث من فنكلمان لما توج بيرون شعره بالموت فى بلاد اليونان . وقد أعان هذا الهلنستى الغيور على تشكيل مبادىء منجز ونورفالدسن الكلاسيكية الحديثة ، وتصوير جاك — لوى دافيد الكلاسيكى الحديث . يقول هيجل « يجب أن يعد فنكلمان واحدا من أولئك الذين عرفوا فى ميدان الفن كيف يخلقون أداة جديدة للروح الإنسانية »[٧٠].

٦ — الفنانون

لم تكن إيطاليا فى حاجة إلى حث يأتيها من فنكلمان ، لأنها كانت تكرم أربابها ، وكان فنها المتراكم يقوم فى كل جيل بمهمة المدرسة التى تدرب مئات الفنانين من أقطار كثيرة . من ذلك أن كارلو ماركيونى صمم فيللا

البانى الفخمة (١٧٥٨) التى جمع فيها الكردينال البانى بارشاد فنكلمان مجموعة عالمية الشهرة من المنحوتات القديمة — لا تزال غنية رغم طول العدوان عليها . (فقد سرق نابليون ٢٩٤ من تحفها لفرنسا ، وربما كان هذا هو العلة فى قول إيطالى مأثورة فى تلك الأيام: ليس كل الفرنسيين لصوصا ، بل عدد عديد منهم) .

وانجبت البندقية أكثر كبار المصورين الإيطاليين فى تلك السنين ، وقد ورث ثلاثة منهم أسماء مشهورة . أولهم أليساندرو لونجى بن بييترو ، الذى أبرز عبقرية قومه بصور شخصية رقيقة منها صورتان لجولدونى . (٧١) ولقد رأينا من قبل دومنيكو تيبولو يصحب أباه إلى أوجزبورج ومدريد ، ويعرض فى تواضع تخصصه على عامة الشعب . ففى مضيفة فيللا فالمارنا استهل إنتاجه المستقل بصور المشاهد اليومية فى حياة الريف ، فصورة « الفلاحين يستجمون » أشبه بالقصيدة الرعوية ، تصور أدواتهم وقد سقطت عنهم ، وتصور استرخاءهم فى دعة واطمئنان . وبعد أن مات أبوه فى أسبانيا عاد دومنيكو إلى البندقية وأطلق العنان لأسلوب الواقعية الساخرة الذى اتخذه لنفسه . (٧٢)

وثالث هؤلاء هو فرانشسكو جواردى ، صهر جامباتسنا تيبولو ، الذى تعلم التصوير من أبيه ، وأخيه ، وكانا ليتو . وقد فاته التقدير فى جيله ، ولكن لوحته « فيدوتى » لفتت أنظار النقاد ببراعتها فى التقاط ونقل لطائف الضوء وتقلبات الجو ، وربما أوحى ببعض الإلماعات للتأثريين الفرنسيين . ولم ينتظر تحذير كونستابل الذى قال « تذكر أن الضوء والظل لا يقفان ساكنين أبدا » (٧٣) . ولعل أحب الساعات إليه كانت ساعة الشفق ، حين تمحى الخطوط وتختلط الألوان وتغيم الأطياف ، كما فى صورته « الجوندول على البحيرة » (٧٤) وكأنما صممت أجواء البندقية ومياهها لتهيىء هذه المناظر المضببة المنصهرة . وقد ذكروا أن جواردى كان أحيانا يحمل مرسمه فى زورق ويسير به على القنوات الصغرى ليلتقط مناظر لم تبتذل بطول إلف الناس لها . وكان يرسم الناس بغير عناية ، وكأنه شعر بأنهم ليسوا سوى

تفاصيل سريعة الزوال إلى جوار المعمار المكين والبحر والسماء الدائمين رغم ما يطرأ عليهما من تغير . ولكنه كان قادرا على تصوير الناس أيضاً ، فتراهم يزحمون البياتسيتا فى لوحة « المهرجان[٧٥] » ، أو يسيرون فى ثياب فاخرة فى « صالة فيلارمونيتشى[٧٦] » الكبرى . وكان أخوه جوفانى يعد أثناء حياتهما مصوراً أفضل منه • وكاناليتو أعظم من كليهما ، أما اليوم فان جواردى يعد بالبقاء بعد ان تخبو شهرة الاثنين .

وعاد انطون روفائيل منجز من أسبانيا عام ١٧٦٨ ،وسرعان ما أصبح قطب التصوير فى روما . ولم يشك أحد فى تفوقه على معاصريه من الفنانين. كانت الرؤوس المتوجة تسعى إلى ريشته • وتسعى إليها دون جدوى أحيانا. وكان فنكلمان يلقبه برفائيل عصره ، وأشاد بلوحته الرهيبة « جبل بارناس » « رائعة » خايقة بأن ينحنى أمامها حتى رفائيل [٧٧] » ، وضمن كتابه « تاريخ الفن القديم » تقديرا عظيما لصديقه[٧٨] .

وأروع الصور التى رسمها منجز فى هذه الفترة صورته الذاتية (١٧٧٣؟)[٧٩] ويبدو فيها وهو ما يزال قوياً وسيما أسود الشعر معتزاً بنفسه فى الخامسة والأربعين . وبعد أن أقام فترة ثانية فى أسبانيا عاد (١٧٧٧) ليقضى ما بقى له من أجل فى ايطاليا . وواصل نجاحه،ولكن موت زوجته(١٧٧٨) حطم روحا كانت من قبل شديدة المرح . واجتمعت عليه شتى الأسقام فأضعفته ، وأجهز عليه التجاوء إلى المشعوذين والعلاجات السحرية . ومات عام ١٧٧٩ وهو فى الحادية والخمسين . وأقام تلاميذه لذكراه نصبا فى البانثيون ، إلى جوار تمثال رفائيل . واليوم لا تجد من يجل ذكراه من النقاد مهما صغر شأنه .

٧ — الموسيقى

كانت موسيقى الكنيسة قد اضمحلت مع تحول الحياة شيئاً فشيئاً بعيداً عن الدين ، ووصلتها العدوى من الأشكال الأوبرالية . وكانت موسيقى الآلات تزكو ، من جهة بفضل التحسين الطارىء على البيانو ، ولكن أهم

obeikandl.com

من ذلك لشعبية الكمان (الفيولينه) المتزايدة . وغزا كبار العازفين من أمثال يوفيانى وفيوتى وناردينى أوربا بقوس الكمان . وطاف موتزيو كلمنتى ، الذى غادر ايطاليا ليعيش فى انجلتره عشرين سنة ، بالقارة عازفا على الأرغن والبيانو ، ونافس موتسارت فى فيينا ، ولعله أفاد من قول موتسارت تعليقاً على عزفه أن هذا العزف آلى أكثر مما يجب . وكان أنجح معلم للبيانو فى القرن الثامن عشر ، وقد أرسى أسلوب القرن التاسع عشر فى تكنيك البيانو بسلسلة تمارينه ودراساته الشهيره « خطوات إلى بارناس » موطن ربات الفنون Muses اللاتى اشتقت منهن الموسيقى اسمها . وورث جاتيانو بونيانى تفنن أستاذه تارتينى فى عزف الكمان وأسلمه إلى تلميذه جوفانى باتستا فيوتى ، الذى عبر أوربا من أولها لآخرها ظافرا . ومازال فى استطاعة أذاننا المؤثرة للقديم أن تستمتع بكونشرتو كمان فيوتى فى مقام الصغير .

أما لويجى بوكيرينى فقد رحل كما رحل الكثير من الايطاليين عن بلد اكتظ بالموسيقين ليلتمس جمهورا من المستمعين فى الخارج . وقد سحر أسبانيا من ١٧٦٨ حتى مماته فى ١٨٠٥ بآلة التشيللو كما سحرها من قبل فارنيللى بصوته وسكارلاتى ببيانه القيثارى (الهاريسيكورد) . وعلى مدى جيل كامل كانت مؤلفاته الآلية تنافس مؤلفات موتسارت فى ظفرها بالاشادة والاطراء من شتى الدول ، وكان فردريك وليم الثانى ملك بروسيا ، وهو نفسه عازف تشيللو ، يفضل رباعيات بوكيرينى على رباعيات موتسارت[٨٠] . وقد ألف خلال سنيه الاثنتين والستين خمسا وتسعين رباعيه وترية ، وأربعا وخمسين ثلاثية ، وأثنتى عشرة خماسية للبيانو ، وعشرين سمفونية ، وخمسة كونشرتوات للتشيللو ، وأوراتوريوين ، وبعض الموسيقى الدينية . ويعرف نصف العالم حركته « المنويت » وهى حركة من احدى خماسياته . ولكن يجب أن يعرف العالم كله الكونشرتو بمقام B الشديد الانخفاض الذى ألفه للفيولومنشيللو والأوركسترا .

واستسلمت أوربا دون مقاومة (فيما عدا باريس مرة أخرى) للغناء الايطالى الجميل « الملعلع » (البيل كانتو) . فمن أكثر من عشر من مدن

الحذاء السحرى تدفقت مغنيات الأوبرا من أمثال كاترينا جابر بيللى والمغنين الخصيان أمثال جسبارو باكييروتى عبر الألب إلى فيننا وميونخ وليبرج ودرسدن وبرلين وسانت بطرسبورج وهمبورج وبروكسل ولندن وباريس ومدريد . وكان باكييروتى آخر الخصيان المشهورين فى عالم الغناء ، وقد نافس فن فارنيللى جيلا بأكمله . واسترق أسماع لندن أربعة أعوام ، ومازال اطراء الانجليز له يتردد فى « يومية » [٨١] فانى بيرنى ، وفى كتاب أبيها « تاريخ الموسيقى العام[٨٢] .

وتبع المولفون الموسيقيون وقادة الأوركسترا الايطاليون المغنين . فألف بييترو جوليبمى ماتى أوبر ، وتنقل بين نابلى ودرسدن وبرنزويك ولندن ليقودها . وقد انحدر الينا ذكر موسيقى آخر من نابلى هو نيكولا بيتشينى ، ولكنه ذكر شوهته منافسة لم يرغب فيها مع جلوك فى باريس ، ولكن جاليانى وصفه بأنه « رجل شريف جداً [٨٣] » . وقد ظلت أوبراته الهازلة عقدا كاملا للبدعة السائدة فى نابلى وروما ، لا بل إن أوبرا برجوليزى «الخادمة التى انقلبت ربة البيت» لم تحظ بمثل الشعبية التى حظيت بها أوبرا بيتشينى (١٧٦٠) . وكان جوميللى ، وبرجوليزى ، وليو ، وجالوبى قد لحنوا « أولبمبيادى» التى ألفها متاستازيو ، فنهج بتشينى نهجهم ويزهم كلهم باجماع الرأى . وفى ١٧٧٦ قبل دعوة إلى باريس ، أما الحرب الضارية التى تلت ذهابه إلى هناك فلابد أن تنتظر دورها الجغرافى ، ولكن بتشينى سلك من أولها لآخرها مسلكا غاية فى المجاملة ، مبقيا على صداقته مع منافسيه جلوك وساكينى رغم أن المتشيعين لهما هددوا حياته .[٨٣] فلما أغرقت أحداث الثورة الفرنسية هذه الأوبرا الهازلة عاد بتشينى إلى نابلى . وهناك حددت اقامته فى منزله أربع سنوات لتعاطفه مع فرنسا ، وكانت أوبراته تقاطع بصيحات السخرية حتى توقف تمثيلها ، وعاش فى فقر يشين وطنه . وبعد أن فتح نابليون ايطاليا دعى إلى باريس مرة أخرى ١٧٩٨ ، ومنحه القنصل الأول وظيفة شرفية متواضعة ، ولكن أصابته بالشلل حطمته جسداً وروحاً ، ومات فى باريس عام ١٨٠٠ .

أما أنطونيو ساكيني فقد ولد لأب كان صياد سمك فى بوتسولى ، وكان يدرب ليحلف أباه حين سمعه فرانشسكو دورانتى يغنى ، فانطلق به إلى نابلى تلميذاو محسوباً له. وقد احتفى الجمهور بأوبراه «سميراميدى» فى التياترو أرجنتينو بروما احتفاء أبقاه مع ذلك المسرح سبع سنين مؤلفاً للأوبرات. وبعد أن أقام ردحاً فى البندقية خرج ليغزو ميونخ وشتوتجارت ... ولندن ١٧٧٢ . وصفق الجمهور لأوبراته هناك ، ولكن الدسائس المعادية أضرت بشعبيته ، وأتلفت عاداته الفاجرة صحته . ولما انتقل إلى باريس أخرج رائعته Oedipe a Colone (١٧٨٦) التى احتلت خشبة الأوبرا طوال ٥٨٣ عرضاً فى السنوات السبعة والخمسين التالية ، وفى وسعنا أن نسمعها إلى اليوم على الهواء من حين لحين . وقد اقتبس عدة اصلاحات مما أدخله جلوك ، وأقاع عن أسلوب الايطاليين فى جعل الأوبرا تلفيقاً من الألحان ، وفى أوديبى تسيطر القصة على الألحان ، وتضفى الكوارس التى استلهمها من أوراتوريوات هندل الجلال والعظمة على الموسيقى والموضوع كليهما .

واتصل الغزو الغنائى بأنطونيو ساليرى ، عدو موتسارت وصديق بيتهوفن الشاب . ولد قرب فيرونا ، وأرسل وهو فى السادسة عشرة إلى فيينا (١٧٦٦) ، وبعد ثمانى سنوات عينه يوزف الثانى مؤلفاً موسيقيا للبلاط ، وفى ١٧٨٨ رئيسا لفرقة المنشدين . فى هذه الوظيفة فضل مؤلفين آخرين على موتسارت ، ولكن القصة التى زعمت أن هذه المعارضة سببت إنهيار موتسارت ليست إلا خرافة[٨٥] . فبعد موت موتسارت صادق ساليرى الأبن وأعان على تطوره الموسيقى . وقد قدم بيتهوفن عدة مؤلفات لساليرى ، وقبل إقتراحاته بتواضع لم يعهد فيه .

أما « ألمع نجم فى سماء الأوبرا الإيطالية خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر[٨٦] » فهو جوفانى بانيزيللو . كان أبنا لجراح بيطرى فى تارانتو ، وقد أعجب معلموه اليسوعيون بصوته أعجابا حملهم على إقناع أبيه بأن يوفده إلى معهد دورانتى الموسيقى فى نابلى (١٧٥٤) . فلما إتجه إلى تلحين الاوبرات وجد جماهير نابلى شديدى الحب لبتشينى ، لذلك قبل دعـوة وجهتها إليه كاترين الكبرى . وفى سانت بطرسبرج ألف (١٧٨٢) Il barbiere di Siviglia

(حلاق أشبيلبة) ، وقد كتب لها من النجاح الخالد فى أوربا كلها ما جعل الجمهور يلعن أوبرا عرضها فى نفس الموضوع بروما (٥ فبراير ١٨١٦) الموسيقى روسينى لأنها تطفل غير كريم على أرض حرام لبايزيللو الذى كان لا يزال على قيد الحياه . وتوقف بايزيللو بفيينا فى طريق عودته من روسيا عام ١٧٨٤ فترة أتاحت له تأليف إثنتى عشرة « سمفونية » ليوزف الثانى ، واخراج أوبرا Il ne Teodoro تيودور الملك » سرعان ما ظفرت بقبول عم كل أوربا . ثم عاد إلى نابلى رئيسا لفرقة المرتلين لفرديناند الرابع . وأقنع نابليون فرديناند بأن «يعيره » بايزيللو ، فلما وصل المؤلف إلى باريس (١٨٠٢) أستقبل أستقبالا بلغ من الفخامة والبهاء ما أثار عليه عداء الكثيرين . وفى ١٨٠٤ قفل إلى نابلى تحت حماية جوزف بونابرت ومورا .

ويجب أن نلاحظ فى مرورنا مبلغ الصبر والأناة التى كان هـؤلاء الايطاليون يعدون بهما مستقبلهم المهنى . فبايزيللو درس تسع سنين فى معهد دورانتى الموسيقى « دى سان أو نوفريو » ، وتشيماروزا درس أحدى عشرة سنة فى معهد سانتا ماريا دى لورينو ، ثم فى نابلى . وبعد أن تتلمذ دومنيكو تشيماروزا طويلا على يد ساكينى وبتثينى وغيرهما ، أخرج أول أوبرا له « rtravagance del conte «إسراف الكونت» وسرعان ما استمع الناس لأوبراته فى فيينا ودرسدن وباريس ولندن . وفى ١٧٨٧ ذهب بدوره إلى سانت بطرسبورج حيث أبهج قلب القيصرة المزواج بأوبرا كايوباتره . وحين دعاه ليوبولد الثانى ليخلف ساليرى رئيسا للمرتلين بفينا ، أخرج هناك أشهر أوبراته وهى « الزواج السرى » (١٧٩٢) . وقد بلغ سرور الأمبراطور بها حدا جعله يأمر بعد أنتهائها بتقديم العشاء لجميع الحاضرين ، ثم أمر باعادة الاوبرا كلها[٨٧] . وفى ١٧٩٣ دعى ثانية إلى نابلى « رئيسا للمرتلين » لفرديناند الرابع . فلما خلع جيش من جيوش الثورة الفرنسية الملك (١٧٩٩) رحب تشيماروزا بالحدث ترحيبا حماسياً ، فلما رد فرديناند إلى عرشة حكم على تشيماروزا بالاعدام . ثم خفف الحكم إلى النفى . ويمم المؤلف شطر سانت بطرسبرج ، ولكنه مات فى الطريق بالندقية (١٨٠١) . واحتوت مخلفاته التى تركها بالأضافة إلى العديد من الكنتاتات ، والقداسات ،

والاوراتوريوات ، نحو ست وستين أوبرا كانت تلقى استحسانا أكثر بكثير ما ظفرت به أوبرات موتسارت ، وهى حتى فى وقتنا هذا يجب أن تعد فى مرتبة تالية لاوبرات موتسارت فقط فى أوبرا القرن الثامن عشر الهازلة .

وإذا كانت الميلوديا هى لب الموسيقى ، فالموسيقى الإيطالية إذن إسمى الموسيقات . كان الألمان يفضلون التناغم متعدد الأصوات (الهارمونيا البوليفونيه) على الخط الميلودى البسيط . وفى هذه الناحية ظفرت إيطاليا بنصر آخر على ألمانيا حين أخضع الالمانى موتسارت البوليفونيه للميلودية . ولكن الايطاليين غلبوا الميلوديا تغليبا جعل أوبراتهم أقرب إلى أن تكون سلسلة من الأغانى الرخيمة أكثر منها درامات موسيقية كالتى قصد إليها أوائل مؤلفى الاوبرا الأيطاليين (حوالى ١٦٠٠) فى محاولتهم منافسة فن الأغريق الدرامى . وهكذا نرى دلالة الحركة فى الأوبرا الايطاليه ، بل دلالة الكلمات فى حالات كثيره ، تضيع وسط بهاء الأغنية وروعتها وكان هذا جميلا ، ولكن إذا كان الفن كما اعتدنا أن نراه هو استبدال النظام بالفوضى للكشف عن المغزى أو الدلالة ، فإن الاوبرا فى الأيدى الايطالية قصرت دون بلوغ أسمى إمكاناتها ، وقد إعترف بهذا بعض الايطاليين مثل جوميللى وترايتا ، وجهدوا لصب الموسيقى والتمثيلية فى كل موحد ، ولكن ذلك الأنجاز كان عليه أن ينتظر أوبرات جلوك ليحقق أنصع صوره . وهكذا توقف فى بندول الحياة الغزو الأيطالى لأوربا بالميلوديا ، حين أخرج جلوك عام ١٧٧٤ فى باريس « افجينى فى أوليدى » التى أخضعت الموسيقى للتمثيلية . ولكن الصراع بين الميلوديا والدراما أتصل ، وكسب فاجنر معركة للدراما ، وأستولى فردى على عنائم جديده للميلوديا . وليت النصر الكامل لا يتحقق لأى من الفريقين .

٨ — الفيـــيرى

لم ينجب هذا العصر رجالا على شاكلة دانتى ، ولكن كان هناك بارينى فى الشعر وفيلانجييرى فى النثر ، وألفييرى فى الدراما والنثر والشعر .

ولقد شق جوزيبى بارينى طريقه صعداً من الفقر ، وكسب قوته بنسخ

المخطوطات ، ودخل دنيا النشر (١٧٥٢) بديوان صغير من « الشعر المنثور» واحترف القسوسية وسيلة للعيش ، وحتى بعد هذا اضطر لكسب قوته بأعطاء الدروس الخصوصية لأن إيطاليا أكتظت بالقساوسه . وأرهف الفقر قلمه فاتجة إلى الهجاء . تأمل فى حياة الكثير من نبلاء الايطاليين العاطلة المترفة فخطر له أن يصف يوما نموذجيا فى حياة شريف ذى « دم أزرق » . وفى ١٧٦٣ أصدر أول جزء سماه (الصباح)، وبعد عامين أضاف (الظهيرة) ، ثم أكمل الجزء الثالث الذى لم يعش لينشره (المساء) و (الليل) ، وهى فى مجموعها تؤلف هجائية ضخمة سماها «اليوم» Il giorno وأبدى الكونت فونى فيرميان نبلا حقيقيا بتعيينه القس الشاعر محررا لجازيته ميلان ، واستاذا للآداب البحته فى « السكولا بالاتينا » ورحب بارينى بالثورة الفرنسية ، وكافأه نابليون بعضوية مجلس مدينة ميلان . والقصائد الغنائية التى نظمها بين ١٧٥٧ و ١٧٩٥ تعد من عيون الآدب الايطالى الصغيرة . ولايصلنا بالترجمة إلا صوت خافت منه ، كما نسمعه فى هذه السونيته التى توحى بأن كاتبها عاشق لا قسيس :

إيه أيها الكرى الرحيم ، يامن تشق بجناحك الرقيق
طريقك الهادىء متعجلا فى الليل البهيم
وتتراءى بالأحلام الكثيرة السريعة
للنفس المضناة على فراشها الساكن :
اذهب إلى حيث تضع « فيليس » رأسها اللطيف
وخدها النضر على الوسادة الهادئة ،
وبينما يرقد جسدها روع روحها
برؤيا جسم كئيب خلقته بسحرك ،
وليكن شديد الشبه بى ،
شوه الشحوب وجهه ،
حتى تستيقظ وقد هزها الحنان على .

إنك لو تفضلت على بهذا الصنيع
لجدلت لك إكليلا مزدوجا من الزهر
ووضعته فى سكون على مذبحك (٨٨)

ولنضف إلى هذه الباقة من الزهر زهرةمن التنوير الإيطالى هى فقرةمن كتاب جايتانو فيلانجيرى « على التشريع » La scienza della Legislazione (١٧٨٠ — ٨٥) ، استوحاها من بكاريا وفولتير .

« ماينبغى أن يكون الفيلسوف مخترعاً للمذاهب بل رسولا للحقيقة ، ومادامت الشرور التى ابتليت بها البشرية قائمة بغير شفاء ، ومادام مسموحاً للخطأ والتحيز بأن يخلدا هذه الشرور ، ومادامت الحقيقة مقصورة على القلة وعلى المميزين ، محجوبة عن معظم النوع الإنسانى وعن الملوك ، فسيظل واجب الفيلسوف أن يبشر بالحقيقة ،وأن يحافظ عليها ويشجعها ، وينيرها. وحتى إذا كانت الأضواء التى ينشرها لا تفيد فى جيله وقومه ، فإنها لاشك ستفيد فى بلد وجيل آخرين . فالفيلسوف — ذلك المواطن فى كل مكان وزمان — أمامه الدنيا كلها وطناً ، والأرض مدرسة ، والأجيال القادمة تلاميذ . » (٨٩)

وقد لخص العهد كله فى الفيرى : فالانتقاض على الخرافة ، وتمجيد الأبطال الوثنيين ، والتنديد بالاستبداد ، والاشادة بالثورة الفرنسية ،والنفور من شططها والصيحة المطالبة بتحرير إيطاليا — كل هذا مضافاً إلى قصةغرام حرام ووفاء نبيل . وقد سجل هذه الحياة المشبوهة فى « حياة فيتوريو الفيرى . . . مكتوبة بقلمه ، موصولة إلى ماقبل موته بخمسة أشهر . وهى من أعظم التراجم الذاتية ، لا تقل كشفاً عن نفس صاحبها عن « اعترافات » روسو . ويستهلها بعبارة يلقى القارىء أمامها السلاح : « إن حديث المرء عن نفسه ، وأكثر منه الكتابة عن نفسه — إنما هو دون أدنى شك وليدالمحبة الفائقة التى يحبها المرء لذاته ، وبعدها لا يتوارى الكاتب خلف قناع من التواضع ولا تند عنه أمارة على عدم الأمانة :

« ولدت فى مدينة أسنى بييدمونت فى ١٧ يناير ١٧٤٩ لأبوين شريفين ثريين محترمين . وأنا أذكر هذه الظروف على أنها ظروف سعيدة للأسباب التالية . فقد خدمنى شرف المولد خدمة كبرى ، . . لأنه مكننى من أن أذم النبالة لذاتها دون أن أتهم بالدوافع الدنيئة أو بدافع الحسد ، وأن أميط اللثام عن حماقاتها ، ورذائلها ، وجرائمها . . . أما الثراء فعصمنى من قبول الرشوة ، وأطلق حريتى فى خدمة الحق دون سواه » (٩٠) .

ومات أبوه وهو طفل ، وتزوجت أمه ثانية . وانطوى الغلام على نفسه ، وأطال التفكير ، وفكر فى الانتحار فى الثامنة ولكنه لم يهتد إلى أى طريقة مريحة . وتكفل به خال له وأرسله وهو فى التاسعة ليتلقى العلم فى أكاديمية تورين . وهناك تولى خادم خاص خدمته والسيطرة عليه بالعنف . وحاول معلموه أن يحطموا إرادته كأول مرحلة فى تنشئته رجلا ، ولكن طغيانهم ألهب كبرياءه وشوقه إلى الحرية « إن درس الفلسفة . . . كان من النوع الذى ينوم الطالب وهو واقف منتصباً » (٩١) . على أن موت خاله تركه المتصرف فى ثروة عريضة وهو بعد فى الرابعة عشرة .

وبعد أن حصل على موافقة ملك سردينيا التى كانت شرطا للسفر خارج البلاد بدأ فى ١٧٦٦ جولة فى أوربا استغرقت ثلاثة أعوام . ووقع فى غرام نساء شتى ، وعشق الأدب الفرنسى والدستور الإنجليزى . ودمرت قراءته لمونتسكيو وفولتير ورسو لاهوته الموروث ، وبدأت كراهيته للكنيسة الرومانية — مع أنه بالأمس فقط لثم قدم كلمنت الثالث عشر « شيخ لطيف ذو جلال وقور ». (٩٢) وفى لاهاى شغف حباً بامرأة متزوجة ، فابتسمت ثم انصرفت عنه ، وعاد يفكر فى الانتحار ، وكان العهد عهد فرتر ، والانتحار فكرة شائعة فى الجو . ثم عاد ليكتشف أن الفكرة أشد جاذبية تطلعاً منها تنفيذا ، فرجع إلى بيد مونت ولكنه شقى فى جو ملؤه الخضوع السياسى والدينى شقاء حمله على استئناف أسفاره (١٧٦٩) .

وجاب الآن أرجاء ألمانيا والدنمرك والسويد — حيث أحب الطبيعة كما يقول وأحب الناس وحتى الشتاء . ومنها إلى روسيا ، فاحتقرها لأنه لم ير فى

كاترين الكبرى إلا مجرمة متوجة ، ورفض أن يقدم لها . ولم يسغ بروسية فردريك خيرا من إساءته روسيا ، فهرول إلى هولنده التى انتهجت نهج الجمهورية فى بسالة ، وإلى إنجلتره التى كانت تحاول أن تعلم جورج الثالث أن يخلى بينه وبين شئون الحكم . وقد أغوى زوجة رجل إنجليزى ، وبارز ، وجرح . ثم أصيب بعدوى الزهرى فى أسبانيا (٩٣) ، وعاد إلى تورين للعلاج (١٧٧٢) .

وفى ١٧٧٤ تماثل للشفاء بالقدر الذى أتاح له الدخول فى ثانى مغامراته الغرامية الكبرى ، مع امرأة تكبره بتسع سنين . وتشاجرا ثم افترقا . وأزاحها من أحلامه بكتابة تمثيلية سماها « كليوبطرة » ، وأى شيء أكثر إثارة من عضوية فى حكومة ثلاثية ، وملكة ، ومعركة ، وصل ؟ وأخرجت التمثيلية بتورين فى ١٦ يونيو ١٧٧٥ « وسط تصفيق الاستحسان ليلتين متعاقبتين » ، ثم سحبها لإجراء تعديلات فيها . وأخذ الآن يتحرق شوقاً إلى الشهرة غاية فى النبل والسمو . واعاد الآن قراءة بلوتارخ وعيون الأدب اللاتينى ، ودرس اللاتينية من جديد ليغوص فى مآسى سنيكا ، وفى هذه القراءات وجد موضوعات وأشكالا لدراماته . وعزم على استعادة الأبطال والفضائل القديمة كما استعاد فنكلمان الفن القديم .

وفى غضون هذا (١٧٧٧) كان يكتب رسالته « فى الطغاة » . ولكنها احتوت من التهم الحادة للدولة والكنيسة ما جعله ينكص عن نشرها ، فلم تر النور إلا فى ١٧٨٧ . فقد كانت ملتهبة بغيرة أشبه بالغيرة الدينية :

« ليس الفقر الطاحن . . . ولا عطل الأرقاء الذى تتردى فيه إيطاليا ، كلا ، فما هذه هى الدوافع التى وجهت عقلى إلى الشرف الرفيع الحق ؛ شرف تجريد قلمى للهجوم على الامبراطوريات الزائفة . ذلك أن الحاضر بالها مجهولا ، ظل يسوط ظهرى منذ نعومة أظفارى . . . ان روحى الحرة لن تجد سلاما أو راحة حتى أكتب صفحات قاسية لهدم الطغاة » (٩٤) .

وهذا تعريفه للطغاه :

« كل الذين توسلوا بالقوة أو الحيلة — أو حتى بإرادة الشعب أو النبلاء — إلى القبض التام على أطراف الحكم ويعتقدون أنهم فوق القانون ، أو هم كذلك . . . والطغيان هو الصفة التى يجب أن تنعت بها . . . أى حكومة يستطيع فيها الشخص المنوط بتنفيذ القوانين أن يضعها أو يقضى عليها أو ينتهكها أو يفسرها أو يعرقل سيرها أو يوقفها وهو فى مأمن من العقـــاب » (٩٥) .

وعند الفيرى أن الحكومات الأوربية كافة مستبدة باستثناء الجمهورية الهولندية والملكيتين الدستوريتين فى إنجلتره والسويد . وقد أشاد بالجمهورية الرومانية متأثرا فى ذلك بمكيافيللى ، وراوده الأمل فى أن الثورات ستقيم جمهوريات فى أوربا عما قليل . ورأيه أن خير ما يستطيع أى وزير لطاغيه مستبد أن يفعله هو أن يشجعه على ألوان من الطغيان تبلغ من الشطط ما يسوق الشعب إلى الثورة (٩٦) . والثورة فى سنيها الأولى معذورة إذ لجأت إلى العنف لتمنع عودة الاستبداد إلى الحياة :

« وبما أن الآراء السياسية كالآراء الدينية لا يمكن تغييرها تغييراً كاملا أبدا دون استعمال الكثير من العنف ، لذلك كانت كل حكومة جديدة مضطرة لسوء الحظ إلى أن تعنف إلى حد القسوة ، بل تظلم أحيانا حتى تقنع أو ربما تكره أولئك الذين لا يرغبون فى التجديد ولا يفهمونه ولا يحبونه ولا يرتضونه » (٩٧) .

ومع أن الفيرى نفسه كان نبيلا ، ولقبه الكونت دى كورتيميليا ، فأنه أدان الارستقراطية الوراثية لأنها شكل من أشكال الطغيان أو أداة من أدواته . وأدان بالمثل جميع الأديان المنظمة ذات السلطان . وقد سلم بأن « المسيحية أسهمت بقدر غير قليل فى تلطيف العادات الشائعة بين جميع النامس » ، ولكنه أشار إلى « الكثير من أعمال الوحشية الغبية الجاهلة » التى

ارتكبها الحكام المسيحيون « من قسطنطين إلى شارل الخامس »[٩٨] . ويمكن القول عموما :

« إن الدين المسيحى يكاد لا يتفق والحرية . . . فالشعب ، ومحكمة التفتيش والمطهر ، والاعتراف ، والزواج الذى لا انفصام له ، ورهبانية الكهنة — هـــذه هى الحلقات الست فى السلسلة المقدسة التى تقيد السلطة الزمنية (الدولة) بقيود أوثق حتى لتزداد على الأيام ثقلا وامتناعا على التحطيم »[٩٩] .

وبلغ من مقت الفيرى للاستبداد أنه نصح باجتناب الخلف أو الزواج اطلاقا فى الدولة المستبدة . وبدلا من أن ينجب أطفالا ، أخرج فى خصوبة إيطاليه مماثلة أربع عشرة مأساة بين ١٧٧٥ ، و ١٧٨٣ ، كلها بالشعر المنثور ، وكلها كلاسيكية بناء وشكلا ، وكلها يشجب الطغيان بسخط خطابى ، ويمجد الحرية باعتبارها أشرف من الحياة . فترى ميوله فى « البازى » مع محاولة المتآمرين الأطاحة بلورنتسو وجوليانودى مديتشى ، وفى « بروتس الأول» و« بروتس الثانى » لم يعف من اللوم تاركوين وقيصر ، وفى « فليبو كان بكل قلبه مع كارلوس ضد ملك أسبانيا ، ولكنه فى « ماريا ستواردا (مارى ستيوارت) وجد فى رؤساء العشائر الاسكتلندية من الطغيان أكثر مما فى الملكة الكاثوليكية . فلما انتقد على اخضاعه التاريخ لفكرته دافع عن نفسه بقوله :

« سيسمع الناس أكثر من لسان خبيث يقول . . . أننى لا أصور شيئاً إلا الطغاة فى صفحات مفرطة الطول لا لطف فيها ، وأن قلمى الدموى المنقوع فى السم يضرب دائماً على نغمة واحدة رتيبة ، وأن ربة شعرى الفظة لاتنهض نساناً من العبودية الشريره ، بل تثير ضحك الكثيرين . ولكن هذه الشكاوى لن تحول روحى عن هدف بمثل هذا السمو ، ولاتعوق فنى مهما كان ضعيفاً غير كفء لتلبية حاجة بهذه الشدة . لا ولن يكون نصيب كلامى أن تبدده الرياح إذا ولد رجال صادقون بعدنا يؤمنون بأن الحرية لاغنى عنها للحياة[١٠٠] » .

وقد أولع بكونتيسة ألبانى ولعا لم يفقه إلا ولعه بالحرية وكانت ابنة جوستاف أدولف — أمير شتولبرج — جديرن فتزوجت (١٧٧٣) الأمير تشارلز ادوارد ستيوارت ، المطالب الشاب بعرش بريطانيا ، الذى سمى الآن نفسه كونت ألبانى . وقد انغمس هذا الذى كان فتى أنيقا جداً يوم كان « الأمير الحلو تشارلى » فى الشراب ومصاحبة الخليلات لينسى هزائمه . ولم يعقب هذا الزواج الذى رتبه البلاط الفرنسى ، وكان زواجا شقياً . ويبدو أن الكونتيسة ذاتها لم تكن مبرأة من العيوب . وقد التقى بها الفيرى فى ١٧٧٧ ، ورثى لها ، ثم أحبها . ولكى يكون قريباً منها ، حراً فى مساعدتها وتتبع تقلبات حظها دون أن يتكبد مشقه الحصول على إذن ملكى لكل خطوة عبر الحدود ، تخلى عن مواطنه بيدمونت ، ونزل عن معظم ثروته وضيعته لأخته ، ثم انتقل إلى فلورنسه ١٧٧٨ . وكان الآن فى التاسعة والعشرين من عمره .

واستجابت الكونتيسه لغرامه برقه وحذر مراعيه كل أصول اللياقة العامة . وفى ١٧٨٠ حين أمست حياتها فى خطر من جراء عنف زوجها السكير ، اعتكفت فى دير ، ثم فى بيت زوج أختها فى روما . كتب الفيرى يقول « بقيت فى فلورنسه كأنى يتيم مهجور ، وعندها اقتنعت كل الاقتناع اننى بدونها لم أكن أوجد ولو نصف وجود ، لأننى الفيتنى عاجزا كل العجز تقريباً عن القيام بأى عمل جيد[١٠١] » . وما لبث أن ذهب إلى روما ، حيث سمح له برؤية محبوبته بين الحين والحين ، ولكن زوج أختها قاوم جهوده فى الحصول على قرار بابطال زواجها ، مسترشدا فى ذلك برأى القساوسه . (ومن هنا دفاعه الملتونى عن الطلاق « ديللا تيرانيدى[١٠٢] ») . وأخيرا منعه زوج أختها من زيارة الكونتيسه ، فغادر روما ، وحاول أن يرفه عن نفسه بالأسفار والخيل — التى كانت « غرامه الثالث » ، بعد الفنون و« سيدتى النبيلة » . وفى ١٧٨٤ حصلت على انفصال شرعى ، فانتقلت إلى كولمار فى الالزاس . وهناك لحق بها ألفيرى ، وبعدها عاشا

فى رباط غير زوجى حتى أتاح لها موت زوجها أن يتزوجا . وقد كتب ألفييرى عن حبه فى نشوة تذكرنا بما كتبه دانتى فى « الحياة الجديدة » .

« هذا الحب المحموم — الحب الرابع والأخير ، . . كان يختلف عن علاقاتى الغرامية الثلاث السابقة . ففيها لم أجد نفسى منفعلا بأى عاطفة ذهنية توازن وتمتزج بعاطفة القلب . نعم كان هذا الحب أقل عنفاً وحرارة ولكنه كان أكثر استمرارا وأعمق تغلغلا فى الشعور والوجدان . وبلغ من قوة عاطفتى انها . . . سيطرت على كل انفعال وخاطر فى ، ولن تنطفىء فى داخلى أبداً إلا بانطفاء الحياة نفسها . وقد وضح لى . . . انى وجدت فيها امرأة حقه ، لأنها بدلا من أن تصبح كسائر النساء العاديات عقبة فى طريقى إلى الشهرة الأدبية — امرأة تقدم الاهتمامات النفعية وترخص . . . أفكار المرء — وجدت فيها التشجيع والعزاء والقدوة الحسنة فى كل عمل صالح . وإذ تبينت هذا الكنز الفريد وقدرته حق قدره ، فانى بذلت لها ذاتى باستسلام مطلق . ولا ريب فى أننى لم أكن مخطئا فى هذا ، لأننى الآن وقد مضى على حبى لها أكثر من اثنى عشر عاما . . . يزداد حبى لها كلما ذبلت تلك المفاتن العابرة (وهى ليست نفسها الباقية) بحكم الزمن . ولكن عقلى وقد تركز فيها يسمو ويرق ، ويزداد حسنا كل يوم ، وأما عقلها هى فانى أجرؤ على القول بأن هذا يصدق عليها ، وأن من حقها أن تستمد منى العون والقوة[١٠٣] .

وبهذا الحافز مضى يكتب المزيد من المآسى ، وبعض الملاهى ، وشيئاً من الشعر بين والحين والحين . وكان قد كتب خمس قصائد غنائية بعنوان America libra . وفى ١٧٨٨ انتقل الحبيبان إلى باريس ، حيث أشرف الفييرى على نشر مطبعة بومارشين فى كيل على الراين لأعماله . وحين سقط الباستيل هلل ألفييرى للثورة وكله حماسة متقدة للحرية وقال أنها فجر عصر أسعد للبشر . ولكن سرعان ما قزز شطط الثورة وسرقها روحاً كان تصورها للحرية أرستقراطياً ، روحاً تطالب بالتحرر من الغوغاء والأغلبيات ومن البابوات والملوك على حد سواء . ففى ١٨ أغطس ١٧٩٢ غادر هو والكونتيسه

باريس بما استطاعا حمله من مقتنياتهما فى مركبتين فأوقفهما عند أبواب المدينة حشد يسألها عن حقهما فى مغادرتها . يقول ألفييرى « قفزت من المركبة بين الغوغاء ، ملوحاً بجوازات سفرى السبعة وأخذت أصيح وأحدث ضجة . . وهو دائماً السبيل إلى التغلب على الفرنسيين[١٠٤] » . وواصلا الرحلة راكبين إلى كاليه وبركسل ، وهناك نمى إليهما أن السلطات الثورية فى باريس أمرت بالقبض على الكونتيسه . فهرعا إلى ايطاليا ، واستقرا فى فلورنسه . وكتب ألفييرى الآن Misogallo مضطرماً بنار الحقد على فرنسا و « حشد عبيدها أبناء السفاح »[١٠٥] .

وفى ١٧٩٩ استولى جيش الثورة الفرنسية على فلورنسه فلجأ ألفييرى والكونتيسه إلى فيللا فى ضاحية حتى رحل الغزاة . وقد أضعفه وأشابه انفعال هذه السنين ، فأعتقد فى ختام ترجمته الذاتيه التى كتبها عام ١٨٠٢ وهو بعد فى الثالثة والخمسين أنه شاخ . وأوصى بكل ممتلكاته للكونتيسه ثم مات بفلورنسه فى ٧ أكتوبر ١٨٠٣ ودفن فى كنيسة سانتا كروتشى . وهناك أقامت له الكونتيسه أثرا ضخما من صنع كانوفا ، وقد مثلت فيه ايطاليا تنوح فوق المقبرة . وقد ضمت إلى حبيبها هناك فى ١٨٢٤ .

وتكرم ايطاليا ألفييرى باعتباره Il Vate d'Italia نبى الأحياء الذى حررها من الأغلال الأجنبية والكنيسية . وكانت دراماته على ما فيها من حدة ورتابة تقدما منشطا خلف وراءه المآسى العاطفية التى كانت تقدم للمسرح الإيطالى قبله . ومن تمثلياته « فلبيو » و « شاول » و « ميرا » أعدت روح ايطاليا نفسها لماتزينى وجاريبالدى .

ولم يقتصر نشر الطغاة Della tirannide فى الخارج على كيل (١٧٨٧) وباريس ، بل طبع فى ميلانو (١٨٠٠) وغيرها من المدن الايطالية فى ١٨٠٢ و ١٨٠٣ و ١٨٠٥ و ١٨٠٩ و ١٨٤٨ و ١٨٤٩ و ١٨٦٠ ، وأصبح لإيطاليا ما كان لفرنسا وانجلترا وأمريكا كتاب يبين « حقوق الانسان » (١٧٩١) . وكان ألفييرى بداية الحركة الرومانسية فى ايطاليا ، بيرونا قبل بيرون ، يبشر بتحرير العقول والدول من أغلالها . وبعده كان لزاما على ايطاليا أن تتحرر .